فى
التنوير الإسلامى
« ٦ »

الانتماء الثقافى

تأليف
د. محمد عمارة



في التنوير الإسلامى 

الانتماء الثقافى

تأليف

د. محمد عمارة





اسم السلسلة: فى التنوير الإسلامى.
اسم الكتاب: الانتماء الثقافى
تأليف: دكتور / محمد عمارة.
تاريخ النشر: أكتوبر ١٩٩٧.
رقم الإيداع: ١٩٩٧/٣٧٢٥ .
الترقيم الدولى: I . S . B . N 977 - 14 - 0583 -7
الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة – مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ – ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١.
فاكس: ٣٣٠٢٩٦ / ٠١١.
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى – الفجالة – القاهرة .
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ – ٥٩٠٨٨٩٥ / ٠٢.
فاكس: ٥٩٠٢٣٩٥ /٠٢.
ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى – المهندسين – القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ – ٣٤٧٢٨٦٤ / ٠٢ . فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦ /٠٢



كلمات

« وما خُلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب . وما اختار الله - تعالى - للمصائب إلا الرجال ، ولا يثبت لانهمار الغيوث إلا الجبال .

والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من المظم والجلالة ، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرا فى أعين الواقفين عند الظواهر .

والشدة إن صوتت بجلجلها ، وحلت بكلكلها ، ماذا عسى أن يكون ، مما تتخيله الظنون ؟ .

أليس الأمر يرجع إلى موت وحياة ؟ وهذان لايملكهما إلا الله ، وقد فرغ من تقدير الأشياء قبل خلق المسَبَّبات والأسباب .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[1] »[2] .

عبد الله النديم

---

(١) الحديد : ٢٢ .

(٢) عبد الله النديم . مجلة (الأستاذ) العدد الرابع عشر ص ٣١٨ والثانى والأربعون ص ١٠٣٢ . طبعة مصورة عن الأصل . القاهرة . دار كتبخانة للنشر والتوزيع سنة ١٩٨٤ م .

تعريف فى سطور

النديم.. هو :

● عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الإدريسى الحَسَنى (١٢٦١ ـ ١٣١٣هـ ـ ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦م) .

● كاتب وشاعر وخطيب ، وسياسى مناضل ، وعالم فى كثير من العلوم الإسلامية ، وراسخ القدم فى علوم العربية الفصحى ، ومبرز فى النظم والكتابة باللهجة العامية .

● ولد بالإسكندرية ، وحصَّل ما حصَّل من الثقافة والعلوم بالجهد الذاتى والمناهج غير النظامية .

● احترف بعض المهن ، وشغل عددا من الوظائف الصغيرة والثانوية .

● أنشأ « الجمعية الخيرية الإسلامية » ـ فى الإسكندرية ـ للرعاية الاجتماعية ، ولتعليم أبناء الفقراء .

● تفتحت مواهبه ، ككاتب ، فى صحافة تيار الإحياء والتجديد ، الذى قادة جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) ، فكتب فى صحف (المحروسة) و (العصر الجديد) ..

● شارك فى قيادة الثورة العرابية (١٢٩٨ ـ ١٢٩٩هـ ـ ١٨٨١ ـ ١٨٨٢م) وكان أبرز خطبائها المهيجين وألمع كتابها الثوريين . وأصدر إبان الثورة صحيفة (التنكيت والتبكيت) ـ رجب سنة ١٢٩٨هـ ـ ٦ يونية سنة ١٨٨١م ـ و (الطائف) ـ التى حلت محل (التنكيت والتبكيت) ـ ومثلت لسان حال الثورة .

● بعد هزيمة الثورة ، أمام التدخل العسكرى للاستعمار الإنجليزى ، واحتلال مصر ، طاردت السلطة الاستعمارية عبد الله النديم ، فاختفى - فى ذى القعدة سنة ١٢٩٩هـ سبتمبر سنة ١٨٨٢م - عشر سنوات ، كانت ملحمة من ملاحم الصمود والمعاناة .. وفيها ألف عشرين كتابا ، تشهد موضوعاتها - بل وعناوينها - على عمق تكوينه العلمى فى علوم الإسلام والعربية ، وعلى قدمه الراسخة فى مدرسة الإحياء والتجديد .

● وبعد القبض عليه - نتيجة وشاية - فى صفر سنة ١٣٠٩هـ سبتمبر ١٨٩١م - حُبس أياما ، ثم نفى من مصر ، فأقام بفلسطين ، حتى عفى عنه الخديوى عباس حلمى الثانى (١٢٩١ - ١٣٦٣هـ ١٨٧٤ - ١٩٤٤م) فعاد إلى مصر سنة ١٣١٠هـ ١٨٩٢م ، وأصدر مجلة (الأستاذ) - (١٣١٠هـ ١٨٩٢م ١٣١٠هـ ١٨٩٣م) .

● وبسبب مقالاته فى (الأستاذ) نفاه الإنجليز ، ثانية ، فذهب إلى فلسطين ، ثم إلى الآستانة ، فعمل فيها ، وصحب أستاذه جمال الدين الأفغانى ، حتى وافاه الأجل ، ودفن هناك .

● له من الآثار الفكرية والأدبية - غير الصحف التى أصدرها وحررها - كتب : (كان ويكون) و (كتاب الاحتفا فى الاختفا) و (السانحة فى علوم الفاتحة) و (الآلام واللذات فى اتصال الروح بالذات) و (وصْرْف الوَضمَة[1] عن صِرْف[2] العصمة) و(وفد البديع على باب الشفيع) و (خلاصة ما كان فى ليس فى الإمكان أبدع مما كان) و (الفرائد) و (طهارة القلوب والأفواه شرح لا إله إلا الله)

---

(١) الوَضْمَة - بفتح الواو وسكون الضاد - الجماعة من الناس .

(٢) الصِّرْف - بكسر الصاد وسكون الراء - الخالص من الشىء .

و (حلة الأنوار لمادح المختار) و(سيف الموحد في نحر الملحد) و(ترصيع الماس في خير الناس) و (مأتم البُكىّ على آل النبى) و(وطنية الشرق) و(النحلة فى الرحلة) و(السكر النبات فى تربية البنين والبنات) و(نحن وأنتم) و(إنقاذ البليد من ورطة التقليد) و(الدر النفيس فى تاريخ بنى إدريس) و(نيل الأرب فى أخبار العرب) ..

كذلك ، له ديوانان لأشعاره .. وروايتان تمثيليتان عنوانهما (العرب) و(الوطن) ..

تمهيد

عن الموضوع .. والمنهاج

عندما يكون موضوع هذه الصفحات عن « الانتماء الثقافى للنديم » .. فإن أول ما يجب هو تحرير مضامين المصطلحات ..

● فالانتماء : هو الانتساب ، الذى يجسد خيوط الولاء التى تشد الإنسان المُنْتَسب إلى ما ينتسب إليه ، فيرتبط به ، وينجذب إليه ، ويخلص له الولاء والانتماء ..

● والثقافى : نسبة إلى الثقافة ـ التى هى جماع المهارات التى تثمر عمران النفس الإنسانية وتسهم فى تهذيبها ـ تثقيفها ـ وارتقائها على درب المثل والمقاصد والنماذج التى صاغتها وتصوغها العقائد والفلسفات التى يؤمن بها هذا الإنسان .. فهى ـ الثقافة ـ مع «المدنية» ـ التى تمثل عمران « الواقع » ـ جماع الحضارة والعمران :

● والحديث عن الانتماء والانتساب والولاء الثقافى لعبد الله النديم ، لابد وأن يحدد موقع انتمائه الثقافى إزاء :

(أ) الوافد الثقافى الغربى ـ الذى فتحت أمامه الأبواب ، فى عصر النديم ، أكثر من ذى قبل .

(ب) وإزاء موروثنا الفكرى والثقافى ، وتيارات هذا الموروث ..

(جـ) وموقع النديم ـ ولاء وانتماء ـ من دوائر الانتماء الثقافى :

١ ـ الوطنية ـ التى كانت تمثلها مصر .

٢ ـ والدائرة الشرقية ـ والتى كانت تستخدم ، فى أدبيات ذلك العصر ، للدلالة على الدائرة الإسلامية ، وما فى أوطانها الشرقية من أجناس وأقوام ، ومن ملل وأديان .

٣ ـ والدائرة الجنسية ـ التى تحدد حدودها الأعراق .

٤ ـ والدائرة العثمانية ـ الجامعة لأقوام وملل شرقية متعددة ..

أين كانت ثقافة النديم من هذه الدوائر والمؤثرات والمرجعيات ؟؟

● ولقد اعتمدت هذه الدراسة واحدا فقط من الآثار الفكرية للنديم كى يكون الديوان الذى نكتشف فيه ومنه انتماءه الثقافى .. وهو مجلة (الأستاذ) ..

ولم يكن سبب الوقوف عند (الأستاذ) ، دون غيرها من صحف النديم وكتبه ، بسبب حجم الدراسة ـ الذى قد يقتضى الاقتصاد ـ غير المخل ـ فى المصادر وإنما كان الاكتفاء بهذا المصدر ـ مجلة (الأستاذ) ـ مؤسسا على العديد من الأسباب ..

١ ـ فمجلة (الأستاذ) هى آخر الأعمال الفكرية لعبد الله النديم ، وفيها تجسد الموقف الأخير الذى انتهت إليه وختمت به رحلته الثقافية ، التى حفلت بالمراحل والأطوار والمواقف والآراء ..

٢ ـ وفيها تمثلت مرحلة نضجه الفكرى ، حتى أنه يسمى أعداد ـ أجزاء ـ هذه المجلة ـ فى آخر مقالاته بآخر أعدادها ـ يسميها «أجزاء كتاب العبر ، وباب المبتدأ والخبر»[1] ؟! .

---

(١) (الأستاذ) العدد الثانى والأربعون ـ ص ١٠٣١ .

٣ ـ وعلى صفحات هذه المجلة تناثرت خلاصات تأملاته فى سنوات اختفائه العشرة . . بل لقد كان نشر هذه المجلة لخلاصات موضوعات المؤلفات العشرين التى كتبها النديم فى فترة اختفائه واحدا من مقاصد إصدار هذه المجلة . . يعلن عن ذلك شقيقه «عبد الفتاح النديم الإدريسى» ، فى العدد الأول من (الأستاذ) فيقول : «والحامل لى على فتح هذه الجريدة[1] ، أنى رأيت شقيقى الفاضل السيد عبد الله أفندى النديم ، المنشئ الشهير ، قد مضى مدة اختفائه مشتغلا بوضع كتب لاتخلو من الفوائد . . فاستأذنته فى نشرها . . ومع كونى اتخذت هذه المؤلفات مادة للجريدة ، فإنى وكلت تحرير مطالبها وترتيب رسائلها لقلمه»[2] . .

ففى مجلة (الأستاذ) خلاصة مؤلفات النديم ، والآراء التى ختم بها مرحلة جهاده الفكرى ، بعد حقبة الاختفاء .

٤ ـ ويزكى هذا الاختيار لهذا المصدر ، أيضا ، ما تميزت به حقبة صدور (الأستاذ)من بعد عن ملابسات الهياج الفكرى وثقافة الشعارات وصياغات التعبئة الوطنية الحادة ، التى تميزت بها ـ وكان لابد أن تتميز بها ـ مرحلة الثورة العرابية ، ومقالات النديم أثناءها . .

٥ ـ كذلك ، كانت المواجهة ـ إبان صدور (الأستاذ) ـ مع «الآخر الثقافى» ، والوافد الفكرى الأوروبى ، حقيقة قائمة على أرض الواقع الثقافى ـ وليست مجرد احتمال ـ فكانت (الأستاذ) ميدانا من ميادين هذه المواجهة مع المنابر الثقافية والفكرية والسياسية التى مثلت « الآخر الثقافى » فى ذلك التاريخ ،

---

(١) كان عبد الله النديم « محرر الجريدة » وكان شقيقه «مدير الجريدة» .

(٢) (الأستاذ) العدد الأول . ص ٣ .

وخاصة منبرى (المقتطف) و (المقطم) اللذين تمثلت فيهما حملة التبشير بمذاهب الغرب وبالسياسة الاستعمارية . .

٦ ـ ثم إن حجم هذا المصدر ـ (الأستاذ) ـ كبير ، فصفحاتها تربو على الألف ـ ١٠٣٢ صفحة ـ . . الأمر الذى يجعلها ـ بمادتها الثقافية ـ وافية كل الوفاء بتحديد معالم الانتماء الثقافى لعبد الله النديم . .

٧ ـ ويزيد من أهمية هذا المصدر ، مكانته فى ساحة الفكر والثقافة الشرقية ـ وليس فقط المصرية ـ فى ذلك التاريخ . . فهذه المجلة الأسبوعية ، التى لم يزد عمر صدورها عن عشرة أشهر[1] ، قد فاق انتشارها كل الصحافة المصرية فى عصرها ـ جرائد كانت تلك الصحافة أو مجلات ـ يومية كانت أو أسبوعية أو شهرية تلك النشريات ـ ؟! . . فعلى حين كان توزيع (الهلال) ـ الشهرى ـ ٧٤٠ نسخة . . و (المقتطف) ـ الشهرى ـ ١٣٠٠ نسخة . . و(المقطم) ـ اليومى ـ ١٤٥٥ نسخة . . و(الأهرام) ـ اليومى ـ ٢٧٧٥ نسخة . . فإن توزيع مجلة (الأستاذ) قد بلغ ٢٨٤٠ نسخة متفوقا على سائر الصحافة المصرية فى ذلك التاريخ !! . فهى «ديوان» الانتماء الثقافى للنديم . . وهى أوسع دواوين الانتماء الثقافى ـ لمجتمعنا ـ انتشارا فى تلك الحقبة المتميزة من حقب المواجهة بين ثقافتنا وبين الوافد الثقافى الأوروبى . . الأمر الذى يرشحها مصدرا وافيا لدراسة موضوع هذه الصفحات .

---

(١) صدر العدد الأول : الثلاثاء ، أول صفر سنة ١٣١٠هـ ٢٤ أغسطس ١٨٩٢م . وصدر عددها الأخير ـ الثاني والأربعون ـ يوم الثلاثاء ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣١٠هـ ١٣ يونيو سنة ١٨٩٣م .

كانت حياة النديم معركة فى سبيل الاستقلال الوطنى والتقدم الحضارى ، تعددت فيها الآليات ، وتمايزت «نبرات الصوت» ، دون أن يغيب المقصد عن هذا المفكر السياسى المناضل فى لحظة من اللحظات ..

وفى الحقبة التى صدرت فيها (الأستاذ) - فى ظل حكم الاحتلال الإنجليزى .. وتحكم اللورد كرومر (١٨٤١ - ١٩١٧م) - كان النديم يتحايل ، كى يواصل جهاده ، بالإعلان عن أنه لن يخوض فى «السياسة» ، بمعنى « الإدارة » ، « .. وأما فن السياسة ؛ من حيث هو ، فإنه يدخل فى موضوعها العلمى ، فإن علم التاريخ والأخلاق والعادات وتدبير الممالك ووحدة الاجتماع العالمى من الفروع السياسية » التى تدخل فى صميم رسالة (الأستاذ)[١] ... ومن هذا الباب لم تدع هذه المجلة ميدانا من ميادين المواجهة مع الاستعمار الإنجليزى ، ومع الوافد الثقافى الأوروبى - الذى قامت له منابر ثقافية وإعلامية رعاها الاحتلال الإنجليزى فى مصر يومئذ - لم تدع (الأستاذ) ميدانا من هذه الميادين إلا وخاضت فيه .. ففى التصدى لسلطة الاحتلال المباشرة ؛ استخدم النديم أسلوب «الرفق» لتحقيق الجلاء ، وكتب يقول : «**وبالرفق يستخرج الإنسان الحية من وكرها.. وفى الإشارة ما يغنى عن الخبر ، فاعتبروا يا أولى الألباب!**»[٢] .. أما فى الفكر والثقافة ، فلقد كانت أعداد المجلة صراعا بين الانتماء الثقافى للنديم وأمته وبين الوافد الغربى الذى يبشر به « الأجراء» و«العملاء» ! ..

---

(١) (الأستاذ) العدد الأول ص ٢ ، ٣ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثانى والعشرون . ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ .

ولهذه الملابسات ، فإن حديث النديم عن الانتماء الثقافي للأمة : لم يكن لونا من ألوان « الترف الفكري » ، وإنما كان سلاحا لمقاومة الاحتواء الاستعماري للأمة ، وتحقيقا لشرط من شروط التقدم الحقيقي : الذي يخرج الأمة من مأزق «التخلف الموروث» و«الهيمنة الوافدة» . .

والنديم ، الذي كتب دراسة ضافية عن أسباب تأخرنا وأسباب تقدم الغربيين ، رغم أن «الخَلْق واحد» - وجعل عنوانها : «بم تقدموا وتأخرنا والخَلْق واحد»[1] ؟!! . . ولعلها أقدم الدراسات في هذا الموضوع . . كان مهموما بقضية « التقدم » ، باحثا عن عوامل التراجع الحضاري ، وعن شروط النهضة . . ولقد امتدت بصيرته إلى الجذور التاريخية لتراجعنا الحضاري ، ورصد من عوامله الداخلية :

(ا) حكم التغلب وسلطان الاستبداد . .

(ب) وتجزئة السلطة وتشرذم الأقاليم في ديار الإسلام . .

(جـ) وتراجع سلطان العلماء وتأثير المؤسسات العلمية والتعليمية . .

(د) وضيق السلاطين بالحرية الفكرية ، وتضييقهم على أرباب الأفكار الحرة وأهل الاجتهاد والتجديد . .

وهي أمراض التخلف الداخلي ، التي طرأت على حياتنا بعد حقبة ازدهار الحضارة الإسلامية ، عندما «جاءت الدولة العربية وأطلقت حرية الأفكار ، وجمعت العلماء من جميع الجهات ، وترجمت كتب الأوائل الحِكْميَّة وغيرها ، وفتحت بابا أغلقه

---

(١) المصدر السابق . العدد الخامس عشر . ص ٣٣٧ - ٣٥٢ .

الجهل قرونا طويلة . ثم انقضى دور الضخامة وتوحيد الكلمة، وجاء وقت المتغلبين، فتجزأت المملكة، وتصدى الثائرون لقتل العلماء وإحراق الكتب وهدم المدارس، فانطفأت أنوار العلوم الشرقية، وضيّق ملوك الشرق على أرباب الأقلام»[1] .

وأبصر النديم دور التحديات الخارجية ، التي جابهت المسيرة الحضارية لأمتنا ، دورها في تنمية الأمراض الداخلية للتراجع الحضاري ، وفي إطالة عمرها ، والحيلولة دون الخلاص منها . وعلى هذه الجبهة رصد تحديات الغزوة التترية ، والحروب الصليبية .. ودورهما في استدعاء ودعم سلطات التغلب والاستبداد ، وفي تراجع دور العلم وسلطان العلماء . . «فبعد أن انبثت روح العلم في المسلمين، وظهر منهم علماء الشريعة الغراء، والآليات، والرياضيات، والطبيعيات، وزينوا الدنيا بعلومهم، وملئوها بآدابهم، ومزقوا ثوب الجهالة والضلالة بسيف الدين والعلم، جاءت فتنة التتار، فقهرت سير المسلمين، وأوقفت التقدم العلمي . وأعظم منها فتنة الحروب الصليبية، التي غرست العداوة بين الملتين الإسلامية والمسيحية، ولاشت القوة العلمية بالقوة العدوانية، فأخذ العلم في الانزواء ثم في التلاشي بموت أهله وإقفال مدارسه وإحراق كتبه ونهبها..»[2] .

وبعد الرصد لأسباب التخلف التاريخي ، الداخلي منها والخارجي ، نبه النديم على أن التقدم إنما يمثل حركة شاملة للنهوض ، لابد فيها من تضافر « الملوك - والدول » و«العلماء وأرباب الأقلام والأفكار» و« الأغنياء وجمعيات وشركات التجارة والصناعة والزراعة » . .

---

(١) المصدر السابق . العدد الخامس عشر . ص ٣٤٨ .

(٢) المصدر السابق . العدد الحادي والثلاثون . ص ٧٣٠ .

فإذا كان « التأخر إنما جاء من تعميم الجهالة ، بإغضاء الملوك عن وسائل التعليم ، والتضييق على أرباب الأقلام والأفكار ، وبعد الأغنياء عن الجمعيات ، وتقاعدهم عن ضروب التجارة والصناعة والزراعة ، ورضاهم بالبقاء تحت أسر الشهوات » . . فإن التقدم مشروط « بإطلاق الملوك حرية الأفكار والمطبوعات، تحت المراقبة، وبذل الأغنياء الذهب في حياة الصنعة، وتعميم المعارف في المدن والقرى، ومساعدة العلماء على الرحلة خلف حياة العلم، واجتماع كلمة الملوك والوزراء والأمم على السعي خلف التقدم، وبذلك يمكنهم أن يوقفوا تيار أوروبا شيئا فشيئا حتى يضارعوها قوة وعلما.. »[1] .

فلم يكن النديم داعية لمطلق « التقدم » ولا لأي « تقدم » .. وإنما هو هنا داعية « للتقدم الذي يوقف تيار أوروبا شيئا فشيئا، وذلك بمضارعتها قوة وعلما » .. ولهذه الحقيقة، التي ميزت التقدم الذي دعا إليه النديم، والتي ميزت وتميز الانتماء الثقافي الذي أفاض في الحديث عنه، جاء حديثه عن ضرورة تحديد « المرجعية .. والمبدأ » الذي تبني عليه الأمة أعمالها على درب التقدم، إخراجا لها وخروجا بها من الحيرة التي تعانيها إزاء التعددية في مرجعيات ومبادئ التقدم والنهوض.. « فرجال الشرق، أخذوا يحاكون أوروبا.. وسعوا في جمع كلمتهم، وعقد الجمعيات لفتح مدارس العلوم والصنائع وتهذيب النفوس وتعميم الآداب، ولكنهم، مع بقائهم على التفرق، وعدم اتخاذ مبدأ يبنون عليه أعمالهم، لا تزال الأيام تقيمهم وتقعدهم، وهم حيارى بين المقعد والمقيم[2] » !

---

(١) المصدر السابق . العدد الخامس عشر . ص ٣٥٢ .

(٢) المصدر السابق . العدد العشرون . ص ٤٦١ ، ٤٦٢ .

ولم يترك النديم قارئه فى حيرة إزاء الانتماء الثقافى «للمرجعية . . والمبدأ» الذى زكاه منطلقا للتقدم الذى دعا إليه . . فهو انتماء «للجامعة الشرقية » وثقافتها . . تلك التى رآها إطارا جامعا يضم تحت جامعه الأكبر العديد من دوائر الانتماء الفرعى ، التى تتكامل فى بناء نموذج ثقافى شرقى ـ متميز عن النموذج الثقافى الغربى ـ الذى صارعه النديم على صفحات مجلة (الأستاذ) . .

وقضية « التعددية » فى دوائر الانتماء الثقافى ، تبرز فى كتابات النديم عندما يعرفنا بنفسه ، فهو : « عبد الله النديم ، الإدريسى ، الحسنى ، الأشعرى ، الشافعى ، الخلوتى ، الإسكندرى[1] » . . ففيه تتعدد وتتكامل دوائر الانتساب والانتماء إلى الأسرة . . وإلى آل البيت من أبناء الحسن بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ وإلى الأشعرى ـ فى علم الكلام وأصول الدين ـ . . وإلى الشافعى ـ فى فقه الفروع ـ وإلى الخلوتية ـ فى طرق التصوف . . وإلى الإسكندرية ـ فى الميلاد والنشأة . .

وفى عناوين مؤلفات النديم تطالعنا هذه الحقيقة . . ففيها كتاب عن (وطنية الشرق) . . وكتاب (نحن وأنتم) ـ عن تميز الشرق عن الغرب الأوروبى . . وكتب عن التاريخ العربى والتراث الإسلامى . . ومن بين كتبه العشرين عشرة خالصة للإسلاميات[2] . .

أما مجلة (الأستاذ) ، التى وصف أعدادها بأنها « أجزاء كتاب العبر ، وباب المبتدأ والخبر » [3] . . والتى كانت منبرا للرابطة الشرقية ، فإنه يصفها بأنها « جريدة إسلامية » تجاور « جرائد دينية

---

(١) المصدر السابق . العدد الحادى والأربعون . ص ٩٩٩ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثانى والأربعون . ص ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ .

(٣) المصدر السابق . العدد الثانى والأربعون . ص ١٠٣١ .

مسيحية للبروتستانت » ؛ وتصارع « جرائد الأجراء » ـ المبشرين بالانتماء الثقافي للغرب ـ من مثل (المقتطف) و(المقطم)[1] !! . .

وإذا كان النديم قد بدأ حياته الفكرية والثقافية في صحافة تيار الجامعة الإسلامية ، الذي بلوره وقاده جمال الدين الأفغاني . . وختم حياته بصحبة الأفغاني في الأستانة ـ حيث شيعه الأفغاني إلى مثواه الأخير ـ فإنه قد أعلن ـ في مجلة (الأستاذ) ـ عن انتمائه لهذا التيار التجديدي ، الذي سعى إلى تجديد دنيا المسلمين بتجديد دين الإسلام . . ففضلا عن إعادته نشر بعض مقالات (العروة الوثقى) ـ لسان حال ذلك التيار[2] ـ فإن حديثه عن الأفغاني وعن الإمام محمد عبده شاهد على هذا الانتماء . . فهو يتحدث عن «السيد جمال الدين الأفغاني ، الشهير ، الغني عن التعريف ، الرجل الذي جرب الأمور ، وساح الأقطار ، وخالط الأمم ، وداخل السياسيين ، ودرس التاريخ الحاضر والماضي ، وامتد باعه في العقليات ، فأصبح أمة وحده بين ذوي الفضل . الأمر الذي دعا مولانا الخليفة الأعظم لاستدعائه وإدخاله في لفيف العلماء الخاص بمجلسه العالي ، فقد أهلته المعارف والتجارب والمخالطة العامة لمسامرة الملوك والنظر في السياسات العالية . وهذا كله من فضل السيد الأعظم حفظه الله تعالى»[3] . .

فإذا كان السلطان وأمير المؤمنين ـ عند النديم ـ هو « الخليفة الأعظم » ، فإن « السيد الأعظم » هو جمال الدين الأفغاني ! وهو

---

(١) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٧٩١ ، ٧٩٢ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثامن والثلاثون . ص ٨٩٧ ـ ٩٠٥ .

(٣) المصدر السابق . العدد السادس والثلاثون . ص ٨٦٨ ، ٨٦٩ .

يكتب ذلك فى ظل الاحتلال الإنجليزى ، يوم كان الانتساب للأفغانى من كبائر المحرمات ! . .

أما تقدير النديم للإمام محمد عبده - وهو أبرز تلاميذ الأفغانى . . وأعظم مهندسى صرح التجديد الإسلامى فى مدرسة الجامعة الإسلامية - وللكتاب والمفكرين الذين تكونت منهم مدرسة النهوض بالعربية والتجديد لأساليب التحرير بها - فإنه يتجلى من وصف النديم الذى يقول فيه : «... أفضل الفضلاء، وإمام محراب الإنشاء، الأستاذ الشيخ محمد عبده، والجهابذة المتفننين، والكتبة المقتدرين: حسن بك حسنى، وإبراهيم أفندى على اللقانى، وإبراهيم أفندى الهلباوى، وحسن أفندى الشمسى، وأحمد أفندى سمير، ووفا أفندى محمد، وسعد أفندى زغلول، والطبيب الذكر أديب أفندى إسحق، وغيرهم من الفضلاء الذين عرفتهم الأقلام بما أودعوها من أسرار الإنشاء وضروب التحرير...»[1] . .

وهى أوصاف شاهدة على موقع فكر أعلام هذه المدرسة من مدارس الإحياء والتجديد الإسلامى فى الانتماء الثقافى لعبد الله النديم .

ففى إطار «الجامعة الإسلامية» - والتى كثيرا ما سميت «الجامعة الشرقية» و «الرابطة الشرقية» . كان الانتماء الثقافى للنديم .

وفى إطار هذا « الجامع الأكبر . . والأول . . والأشمل » رأى النديم تعدد وتكامل دوائر الانتماء الثقافى ، إن على مستوى الفرد . . أو الوطن . . أو الجنس . . أو الأمة . . أو دولة الخلافة : التى كانت تجمع ، يومئذ ، العديد من دوائر الانتماء .

---

(١) المصدر السابق . العدد التاسع والثلاثون . ص ٩٣٨ .

تحدد الثقافة، التي تصوغ الوعى، للإنسان - فردا أو شعبا أو أمة - حدود دائرة المحيط، التي يمنحها الولاء ويخصها بالانتماء.. فهناك ثقافات تقف بانتماء صاحبها عند حدود القبيلة، وأخرى لاتجعل صاحبها يتجاوز جغرافية الوطن؛ وثالثة تقصر الانتماء والولاء على الجنس - بالمعنى العرقي والسلالي - ومن الثقافات ما تجعل الدائرة الحضارية هي محيط الانتماء.. ومنها ثقافات أممية طمحت إلى حصر الانتماء في طبقة من الطبقات الاجتماعية على امتداد الإنسانية.. أو إلغاء ما عدا الدائرة الإنسانية من دوائر الولاء والانتماء..

وفي كتابات عبد الله النديم تركيز واضح على أن دائرة انتمائه الثقافي هي الدائرة الشرقية - بالمعنى الحضاري، الذي يجعل تميزها نابعا من مقابلتها للحضارة الغربية، التي كانت تقتحم أبواب الشرق وحياة أهله في ذلك التاريخ.. وفي هذه الكتابات أيضا ما يؤكد على اشتمال هذه الدائرة الشرقية - كجامع حضاري أكبر - على العديد من دوائر الانتماء الفرعية، التي لاتناقض بينها وبين هذا الانتماء إلى الدائرة الحضارية الشرقية..

والأمر الذي يؤكد أن «الشرق» في هذه الثقافة لم يكن معنى جغرافيا فحسب، وإنما كان دائرة حضارية: هو استخدام هذا المصطلح - «الشرق» - في أدبيات التيار الفكري الذي انتمى إليه النديم كمرادف لمصطلح «الإسلام»، فالحضارة الشرقية والجامعة الشرقية، والرابطة الشرقية، والنهضة الشرقية، والشعوب الشرقية.. إلخ.. إلخ.. كان المعنى بها حضارة الإسلام

وجامعته ورابطته ونهضة شعوبه ، والتى تضم مللا وأقواما هى جزء أصيل وعضوى من حضارة الإسلام ـ وإن ميزتها لغات أو معتقدات روحية لاتقل بدائل لهذه الطوائف عن السمات الجامعة لحضارة الإسلام . .

ولقد أشارت مجلة (العروة الوثقى) ـ لسان حال تيار « الجامعة الإسلامية » ـ وهى تتحدث عن منهج هذا التيار وأهدافه ـ إلى هذه الحقيقة ـ حقيقة استخدام مصطلح « الجامعة الشرقية » بمعنى «الجامعة الإسلامية» ، عندما قالت : إنها «ستأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الإمكان .. وتأتى فى فصولها على أهم ماله أثر فى أحوال الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا» . . ثم أردفت قائلة : « ولا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ، ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم . . فليس هذا من شأننا ، ولا مما نميل إليه ، ولا يبيحه ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا . . وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب فى الأقطار التى غدر بها الأجنبيون..» [1] . .

فالجامعة الشرقية هى جامعة الأغلبية المسلمة ، التى تتعرض لغزو الحضارة الغربية . . ووصفها بالإسلامية ـ الجامعة الإسلامية ـ لايغاير وصفها بالشرقية بحال من الأحوال . .

* * *

(١) جمال الدين الأفغانى (الأعمال الكاملة) جـ ٢ ص ٣٤٤ ، ٣٤٩ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م .

و « الجامعة الشرقية » ، فى ثقافة النديم ، تضم أوطانا عدة ، وأجناسا متعددة . . لكن متاخمة أوطانها بعضها لبعض جعلتها «في حكم الوطن الواحد» ، وغلبة التدين بالإسلام على شعوبها قد أصبح رباطا جامعا كاد أن يذيب فواصل الأجناس وحواجزها . ومكانة العربية - التى هى لسان الدين والتراث - قد جعلتها رباطا جامعا تعلو مكانته على غيرها من اللغات الشرقية . . وكانت الدولة العثمانية - الجامعة لأغلب أقاليم الشرق يومئذ - هى الأخرى عامل توحيد فى هذه الجامعة الشرقية . . وذلك فضلا عن التناقض الحضارى والخطر السياسى اللذين مثلتهما الغزوة الغربية ، مما جعل الجامعة الشرقية - فى ثقافة النديم - «السد المحكم بين الشرق وبين المتهيئين للوثبة على الشرقيين» ! . .

«فالجامعة الشرقية» ، إذًا ، هى دائرة انتماء ثقافى وحضارى ، أوسع من الدائرة العربية - القومية - وأعم من الرابطة العثمانية - الإدارية والسياسية . . فهى دائرة حضارية ، تقف فى مواجهة الحضارة الغربية الواثبة - بالاستعمار - على الشرق والشرقية والشرقيين . .

ولقد كان لاستخدام النديم مصطلح « الشرقية » ، أكثر من مصطلح « الإسلامية » ، سببا موضوعيا فى الظرف السياسى الذى عاش فيه . . فتهمة « التعصب الدينى » كانت - كما سيأتى - فى مقدمة الاتهامات الموجهة إلى الحركة الوطنية المصرية ، وإلى النديم على وجه الخصوص . . الأمر الذى جعل استخدام مصطلح « الجامعة الشرقية » أكثر شيوعا فى الأديان التى أبدعها . .

فهو عندما يتحدث عن الروابط التى تربط المصريين بأهل المشرق ـ الشام ـ وبالعرب عموما ، يخلص ـ بعد تعداد هذه الروابط ـ إلى أنهم جميعا جزء من الجامعة الشرقية ، فيقول : إن « بين المصريين والشاميين والعرب رابطة : اللغة والسلطة فى الكل ـ (أى السلطة العثمانية الجامعة) ـ والدين فى معظمهم ، والجنس فى أغلبهم ، والمتاخمة التى تصيِّر المجموع فى حكم الوطن الواحد.. وهم محتاجون إلى الجامعة الشرقية.. سدا محكما بين الشرق وبين المتهيئين للوثبة عليهم»[1] .

وهذه الجامعة الشرقية هى جامعة للأجناس والقوميات الإسلامية ، من المغرب الأقصى إلى الشرق الأقصى ، « ولا برء لأهلها من الخبل والهَلاس إلا بمعرفة التركى حق العربى وفضله ، واعتراف العربى بمجد التركى وسيادته ، واتفاق السورى مع المصرى ، وائتلاف الهندى باليمنى ، واتحاد العراقى بالفارسى ، وارتباط التونسى بالمراكشى ، وتوجيه نظر المجموع وهمته إلى ما يسمى شرقا لا ما يسمى جنسا ، فإن حاجتنا إلى توحيد الكلمة حاجة الأعمى إلى من يقطع به الصحراء»[2] !

والنديم يتحدث عن دور الإسلام فى تكوين «جنس مستعرب» غدا أوسع دائرة من «الجنس العربى» الذى كان قبل التدين بالإسلام ، فالتدين بالإسلام قد أقام جوامع : «وحدة الدين» و«الوطن» و «الجامعة السياسية والإدارية» ـ الدولة ـ فامتزجت أجناس متعددة ، بفعل هذه «الجوامع الإسلامية» ، لتلد الأمة

---

(١) (الأستاذ) العدد الثامن عشر ـ ص ٤٢٠ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثامن عشر ـ ص ٤١٣ .

العربية على امتداد هذا الأفق الجديد والمديد . . « فعند مجيء الدين الإسلامي وانتشاره في أفريقيا وآسيا وبعض أوروبا ، امتزج العرب بالفرس والشاميين والمصريين والترك والغوط وبعض الطليانيين والإفرنج والسودان والحبشة والهنديين والويغور وغيرهم ؛ وألف بين قلوبهم ، فتوحدت كلمتهم ، وصاهر بعضهم بعضا بجامعة الدين ، فنتج جنس يجنح إلى الأصول بعرق التوليد ، ميال للجامعة بوحدة الدين والوطن والتابعية ، وبكرور الزمان استقل هذا الجنس وصار مستعربا يخالف أصوله ، وقد غلبت عليه المخالطة الوطنية..»[1] .

وكانت مدارس التبشير الكنسية الغربية ، ومعها سلطات الاحتلال الاستعمارية ، قد أخذت في الدعوة إلى «جامعة عربية» منبتة الصلة بالجامعة الإسلامية ، وذلك لاستبعاد دائرة الانتماء الجامعة لشعوب الشرق - وهي دائرة الإسلام . . وعندما يرسل أحد قراء مجلة (الأستاذ) - وهي مسيحي سوري يقيم في مدينة «بطرسبورج» إلى النديم رسالة يمتدح سير المجلة على «الخطة الوطنية العربية» ، يعلق النديم على هذه الرسالة رافضا ومصححا ، فيؤكد أن سياسة (الأستاذ) هي « حفظ الوحدة الشرقية .. لا الجامعة العربية وحدها » فيقول : «ولو قال هذا الفاضل : إننا ننادي بحفظ الوحدة الشرقية ، من عرب وعجم وترك وجركس وكرد وأرمن وغيرهم ، على اختلاف الدين ، لأصاب الغرض ، فإننا ننادي بها ، لا بالجامعة العربية وحدها»[2] . . فالجامعة العربية ليست نهاية دائرة الانتماء ، وإنما هي واحدة من دوائر الانتماء التي تضمها الجامعة الشرقية . .

---

(١) المصدر السابق . العدد الثلاثون . ص ٧٠٦ ، ٧٠٧ .

(٢) المصدر السابق . العدد الحادي والأربعون . ص ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ .

بل لقد وضع النديم دعاة فصل أجناس الجامعة الشرقية فى معسكر « الأجراء للأجنبى » . حتى وإن ربطتهم بنا الأنساب والقرابات . . « فإذا رأيت مصريا أو سوريا أو تركيا أو هنديا أو فارسيا أو مغربيا يوقع النفرة بينك وبين جنس شرقى ، كأن تكون مصريا وترى شرقيا ينفرك من السورى أو التركى ، فاعلم أنه أجير يشتغل لغيره . وأنه أجنبى وإن اتصل بك نسبا وقرابة . . »[1] . .

وكانت الدولة العثمانية أعظم دول الشرق ، والجامع الأكبر فى إطار الجامعة الشرقية ، والسياج الذى يتعلق به الشرقيون اتقاء للخطر الاستعمارى الزاحف على ديار الإسلام . ومن هنا كان تأييد تيار الجامعة الشرقية للدولة العثمانية ، مع المناداة بإصلاح خللها ، والسعى إلى تجديد طاقاتها . . كان ذلك موقفا ثابتا لهذا التيار . . والنديم يفصح عن سياسة مجلته ، فيقول : « لقد نادى الأستاذ بالجامعة العثمانية والعصبية الشرقية[2] . . وتخليد مجد الدولة العلية ، التى هى مرجع الكلمة الإسلامية ، وإن توزع المسلمون فى أقطار متباعدة ووجد بعضهم تحت سلطة دولة أخرى ، فإنهم جميعا يحترمون مقام الخلافة العظمى ، ويعترفون أن السلطة الأجنبية عارض . لايحل رابطة عقدها توحيد الدين فيهم . . »[3] . .

فدولة الخلافة العثمانية : قد ظلت ، حتى فى لحظات الضعف : التى مكنت الاستعمار من اقتطاع العديد من الأقاليم الإسلامية : ظلت « الحجة القانونية » ضد شرعية الاستعمار لهذه الأقاليم الإسلامية ، والأمل الذى يتعلق به تيار الجامعة الإسلامية لجمع كلمة الشرق فى مواجهة الاستعمار . .

---

(١) المصدر السابق . العدد السادس عشر . ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٢) المصدر السابق . العدد التاسع والثلاثون . ص ٩٣٢ .

(٣) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٧٧٨ ، ٧٧٩ .

ولذلك اقترن تأييد تيار الجامعة الإسلامية للرابطة العثمانية وخلافتها ، دائما وأبدا : بالدعوة إلى إصلاح هذه الدولة وتجديد شبابها .. وعلى درب الأفغانى ومحمد عبده ـ وكل أعلام هذا التيار ـ يسير النديم ، الذى صاغ الدعوة إلى إصلاح الدولة العثمانية شعرا ، توجه به إلى السلطان عبد الحميد الثانى (١٢٥٨ ـ ١٣٣٦ هـ ١٨٤٢ ـ ١٩١٨ م) قال فيه :

«نبرئ منك الذات عند ظلم أمة ... ولكن حواليك القليل به غدر
فَسُنَّ التساوى واحتكم واعف واصطبر ... تر الجثث الموتى يحركها النشر
فعندك من أهل السياسة سادة ... طبيعتهم حزم وحليتهم حذر
وقد تفعل الأقلام مالم تصل له ... مدافع فى الهيجاء يصحبها النصر
فَرَبِّ الأهالى يا إمام بحكمة ... وعلمهمُ علما يطيب به الشكر
وعَمِّر بلادا بانتشار معارف ... وإصلاح أرض لايرى أهلها الضر
ولا تعط شبرا للأجانب واحتفظ ... فما بعد ذا إلا التنازع والكر
وأوقف مسير الالتزام لفتية ... تراهم رعايا والجميع لهم مكر
وبث رجال العلم فى كل قرية ... لتعليم دين عنده يقف الظفر
ووحد ضروب الحكم بين رعية ... يؤلفها التوحيد ما بقى الدهر
وأبعد جميع الأدعياء فإنهم ... يسيرون فى طرق يُسَرّ بها الغير»[1]

فالرابطة العثمانية ـ التى دعا النديم إلى إصلاحها ، وتجديد شبابها ـ هى دائرة من دوائر الانتماء السياسى والإدارى فى إطار الجامعة الحضارية الشرقية ؛ التى ضمت وتضم أجناسا وأوطانا ربطت بينها حضارة الإسلام ..

(١) المصدر السابق . العدد الرابع والعشرون . ص ٥٦٦ .

وكذلك الجامع الوطنى ، ورابطة الوحدة الوطنية .. هى واحدة من دوائر الانتماء الفرعية التى تضمها الجامعة الشرقية .. ففى الوطن ، تتوطن الجماعة الوطنية ، التى قد تمايز بينها الأصول العرقية والجنسية ، والملل الدينية ، لكن تجمعها الرابطة الوطنية .. ولقد دعا النديم إلى وطنية تجمع بين التعددية الدينية فى الشعائر العبادية والشرائع الدينية ، وبين وحدة الدولة والقضاء والقانون الإسلامى ، الذى مثل ويمثل جامعا وطنيا وحضاريا لسائر الملل فى ديار الإسلام على مر التاريخ .. «فحفظ الوحدة الوطنية فى الأجناس القاطنة فيما يسمى وطنا إنما يكون بتوحيد القضاء والمعاملة ، وتمكين الطوائف من إجراء عاداتهم فى مجامعهم ومعابدهم وأعيادهم ، كل بما هو حق فى معتقده ، جميل فى عادته ، بلا حجر ولا تضييق[1] ..» فالقانون الشرعى الإسلامى هو بالنسبة إلى كل الذين استظلوا بالدولة الإسلامية - «من المسيحيين والموسويين والمجوس» - جامع وطنى .. «فعلى اختلاف مذاهبهم وأجناسهم ، شملهم القانون الإسلامى العادل ، وحكم بأنهم مثلنا فى الحقوق الوطنية ، لهم مالنا وعليهم ماعلينا .. فتوحدت الجامعة الوطنية بالقانون الشرعى الذى يعد ناقضه عاصيا لله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - .. ومع اتصال الحروب مع الدولة الإسلامية والدول المسيحية ، لم يجن أحد على مستوطن أو وطنى ، ولو كان من الأمة المحاربة ، حفظا للجامعة الوطنية التى قررت حرمتها النصوص الشرعية .. فالقواعد الإسلامية تقضى على الآخذين بها بوجوب المحافظة على الوطنى والمستوطن ومعاملته معاملة المثيل ..»[2] .

---

(١) المصدر السابق . العدد الثانى . ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق . العدد الرابع . ص ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ .

ولقد أفاض النديم فى الحديث عن الوطنية المصرية . . وهو قد برأ «الوطنية المصرية» من النزعات العرقية والجنسية : فالمصريون هم الذين استوطنوا مصر ، بصرف النظر عن أصولهم العرقية . « . . فنحن معاشر المصريين نفتخر بين الأمم بهذه الجامعة التى لا تنحل عقدتها ولا يبدد نظامها . ونعنى بالمصريين كل وطنى من العرب والترك والجركس. أما العرب فإنهم ساكنوا الأقباط من مبدأ الفتح الإسلامى إلى الآن فتوغلوا فى الوطنية إلى أمد بعيد. وأما الترك، فإنهم وإن تأخروا عن العرب فى الاستيطان ولكنهم هجروا بلادهم، وتعاقبوا الإقامة والداعن والد حتى نسوا بلادهم، فلو عاد أحدهم إليها لكان أجنبيا فيها، لطول العهد.. وأما الجركسى، فإن من ولد منهم فى مصر فحكمه حكم العرب والترك، ومن ولد فى غيرها فقد جاءها صغيرا دون سن التمييز فى الغالب، وربما لا يعرف اسم بلده.. فهم مصريون حقيقيون. والأقسام الثلاثة تجمعهم الرابطة الدينية قبل الجامعة الوطنية. فاعتبارنا الأجناس الثلاثة مع الأقباط مصريين اعتبار صحيح حجته المشاهدة والعيان..»[1] . .

وكما جمعت الوطنية المصرية كل الذين استوطنوا مصر ، بصرف النظر عن أصولهم الجنسية ، كذلك جمعت هذه الوطنية بين مسيحييها والأغلبية المسلمة فيها . . «فمصر التى نحن فيها: بلاد إسلامية، مختلطة بقليل من الأقباط الذين تجذبهم الجنسية إلى كثير ممن تولدوا ممن أسلم من سابقيهم، وتدفعهم الوطنية إلى التلاصق بالمجموع بجاذبية الوطنية والألفة وأصول المعاشرة التى قامت مقام اتحاد الجنسيين.. فهم إخوان الوطنية.. فمصر مخصوصة بجامعة وطنية لم يسمع بمثلها فى الأقطار، والأمة الإسلامية مع

---

(١) المصدر السابق ـ العدد الرابع ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

الطائفة القبطية كأهل بيت يتعاونون على المعاش، ويتعاورون الأعمال، ويتقاسمون النظر فى شئون البلاد، ويتعاضدون على حفظ الوطن من طوارق العدوان..»[1] . .

فالوحدة الجنسية جامعة للأكثرية المسلمة ـ التى تولدت من أصلاب المصريين الذين اعتنقوا الإسلام ـ مع القليل من الأقباط ـ الذين بقوا على مسيحيتهم . . وهؤلاء المسيحيون الأقباط تجمعهم بكل الجماعة المسلمة فى مصر ـ فضلا عن الجنسية ـ رابطة الوطنية ـ النابعة من اتخاذ مصر وطنا للجميع ـ ورابطة الألفة وأصول المعاشرة، التى «قامت مقام الوحدة فى الأصول الجنسية والعرقية» . .

ولأن العبث بالوحدة الوطنية لمصر والمصريين، كان هدفا من أهداف الاستعمار الإنجليزى وصحافة « الأجراء والعملاء » ، التى نازلتها مجلة (الأستاذ)، وتصدى لها النديم . . فلقد سعى الرجل إلى تحصين هذه الوحدة الوطنية المصرية من هذا العبث، لتظل متفردة « لم يسمع بمثلها فى البلاد» . . ولتحقيق هذا المقصد الوطنى النبيل دعا عبد الله النديم إلى إقامة «جمعية مصرية» : متميزة عن الجمعيات الخيرية ـ الإسلامية والقبطية ـ تكون مهمتها الحفاظ على الوحدة الوطنية، وتنمية أواصرها، وذلك «بالبحث فى الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته».. فكتب يقول: «ولكننا نحب أن تزداد علاقات الوطنية بعقد جمعية مصرية، موضوعها: البحث فى الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته، ولاتخرج فى هذا كله عن الأدبيات، والمحافظة على ما بين

(١) المصدر السابق ـ العدد الثلاثون ـ ص ٧١١ ـ والعدد الحادى والثلاثون ـ ص ٧٤٩ ـ والعدد الرابع ـ ص ٧٥ .

المصريين وغيرهم من روابط المحبة. فقد رأينا كل جنس له جمعيات وطنية، ونحن لا جمعية لنا تبحث فى الوطنية، فإن الجمعية الخيرية الإسلامية والجمعية القبطية لا تعلق لكل منهما بما نحن فى صدده، فإنهما جمعيتا إعانة وتربية أيتام. ولا يشك عاقل فى أن تكوين جمعية من الفريقين يفيدهما فوائد جمة، ويحول بينهما وبين النزعات الأجنبية.. نريد جمعية تحفظ النظام الوطني بمساعيها الأدبية وما يترتب عليها من تطهير البواطن وتوحيد الكلمة»[1] . .

كتب النديم ذلك قبل نحو عقدين من النجاح الجزئى الذى أحرزه الاستعمار وعملاؤه فى العبث بوحدة الوطنية المصرية . . وهو العبث الذى تصدى له وطوق مخططاته عقلاء المسلمين والمسيحيين . . أولئك الذين دعا النديم إلى إقامة «جمعية مصرية» تضمهم «للبحث فى الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته . . والحفاظ على النظام الوطنى والحيلولة بين النزعات الأجنبية وبين فرقاء الجامعة الوطنية المصرية» ! . . وهى دعوة لازالت تنتظر التحقيق والتطبيق ؟! . .

* * *

هكذا تبدت دوائر الانتماء فى ثقافة النديم : جامعة شرقية ، تميزها الحضارة الإسلامية ، تقوم ، بالنسبة لأجناس الشرق وملله وأوطانه ، «سدا محكما بين الشرق وبين المتهيئين للوثبة عليهم» ـ بعبارة النديم . . وهى جامع أكبر يحتضن الجوامع الفرعية ، التى تتآزر وتتساند فى إطار هذا الجامع الكبير .

---

(١) المصدر السابق . العدد الحادى والثلاثون . ص ٧٥٠ .

يعترف النديم بدور « الغرب » فى إيقاظ « الشرق » .. لكن ليس بالمعنى الذى يتحدث عنه « الأجراء » : من رغبة الغرب فى إيقاظ الشرق ؛ أو سعى الشرقيين - منذ الاحتكاك بالغرب - إلى تمنى النموذج الغربى وتقليده .. وإنما بمعنى إيقاظ النقيض لنقيضه، ودور العدو فى التنبيه على الثغرات ومكامن الخطر، و«فضل» اللص فى إيقاظ أصحاب البيت من سباتهم العميق ! .. فالغرب - بعد الهجمة الاستعمارية على الشرق - قد نهض بدور «المستفز» الذى استنفر الشرقيين للاستيقاظ ! .. « .. فلقد أثرت حركات أوروبا فى معظم شيوخ هذا العصر وشبابه ، فتحركت فيهم همم وغيرة وحمية لم تكن تظن فيهم لو لم تقبح أوروبا سيرهم الدينى والدنيوى، فقابلوا بين نهيها عن التظاهر بالشعائر الدينية وبذلها النفس والنفيس فى حياة الدين والدعوة إليه ببث المرسلين وتكثير المعابد، فتولدت فيهم روح المماثلة، فأصبحوا يقولون وغدوا يفعلون.. » [1] !

لقد استفز الغرب الشرق ، عندما قبح سيرنا الدينى والدنيوى ، وعندما دعانا إلى التخلى عن ديننا فى الوقت الذى كان يهجم علينا بإرساليات التنصير وبناء الكنائس والمدارس التى تسعى لتحويل أبنائنا - مسلمين ونصارى - عن دينهم .. فكان أن تحركت الهمم والغيرة والحمية ، بسبب هذا الاستفزاز الغربى ، و«تولدت روح المماثلة» - لا التبعية لما أراد الغرب - وتبلور لليقظة الشرقية تيار من الشيوخ والشباب « أصبحوا يقولون وغدوا يفعلون » ! ..

---

(١) المصدر السابق . العدد الثامن عشر - ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .

والنديم يُحدّث تيار اليقظة الشرقية عن مقومات الانتماء ، وعن ثوابت النهوض ، التى لايجوز التفريط فيها ولا التنازل عنها تقليدا للأوروبيين . . وهى ست مقومات :

١ ـ حفظ المظهر والوجاهة . .

٢ ـ وحفظ الثروة ، من صناعة وتجارة . .

٣ ـ وحفظ الوطنية ، وحقوقها وواجبات أهلها . .

٤ ـ وحفظ الجنسية ، بعدم التقليد والاتباع لحسنات الغير ومجاراته فى أقواله وأفعاله . .

٥ ـ وحفظ اللغة ، التى هى أداة الحفاظ على الأخلاق وتحسين العادات والمألوفات . .

٦ ـ وحفظ الدين ، الذى يمثل حفظه الجامعة الحافظة لكل مقومات الانتماء ، من الوجاهة والثروة والوطنية والجنسية واللغة . .

وينبه النديم فى حديثه عن هذه المقومات ، على الثوابت منها ، والتى لايجوز تغييرها حتى ولو اقتضى التغيير تحقيق منافع مادية ودنيوية . . وهذه الثوابت هى الدين ، والجنسية ـ القومية ـ والوطنية . . وفى ذلك يقول : « ينبغى لمن يغير عادته بعادة الغير أن ينظر فى أصل عادته وفوائدها ومضارها ، ثم فى عادة الغير كذلك ، فإن رأى حسن عادته ، وأنها من لوازم حفظ المظهر ، أو الثروة ، أو الوطنية ، أو الجنسية ، أو اللغة أو الدين لزمه البقاء عليها وإن لم تحسن فى عين الخليط ، وإن رآها مضرة بذاته أو وطنه أو الهيئة الاجتماعية غيّر منها مالا يفقده الاعتقاد الدينى والشعور الجنسى والغيرة الوطنية .

فإن انتقل من عادته بلا روية ولا نظر للعواقب فقد سلَّم ذاته لمن انتقل لعادته بلا حرب ، ويعز عليه الرجوع لجنسيته ووطنيته وخصائص أمته بعد نسيانه ما هي عليه من العادات ومالها من الأخلاق» .

فالتخلى عن مقومات الشخصية الحضارية ، بتقليد الغير ، هو «تسليم للذات بلا حرب» ! . . كما يقول النديم . .

وإذا كان النديم قد نبه على إمكان تغيير العادات « المضرة بالذات والوطن والهيئة الاجتماعية» فإنه قد اشترط أن لا يمس هذا التغيير ثوابت الهوية الحضارية : « الاعتقاد الدينى ، والشعور الجنسى (القومى) ، والغيرة الوطنية» . . كما نبه على محورية الدين فى ثوابت هذه الهوية الحضارية ، لأن الإنسان « إذا تهاون فى أحوال دينه وفروعه هان عليه التقاعد عن نصرة أهله ، الجامعة لما تشتت من الوجاهة والثروة والوطنية والجنسية واللغة» . . فكأنما الحفاظ على الدين هو الجامع الحافظ لكل مقومات الانتماء . . وذلك - بعبارة النديم - « لسَرْى الجاذبية الدينية فى الجسم سَرْى الماء فى العود . . حتى لنرى مقيما فى الشرق يتألم بمصاب دينيِّه فى الغرب ، وليس بينه وبينه جامعة وطن أو جنس أو لغة . .» . . وإذا فقد الإنسان جامعة الدين «بتقليد الغير فقد استخدم نفسه لأفكار الغير ؛ حتى لو اضطره لمقاتلة أبيه وأخيه معه لفعل ؛ لاستقباحه ما هم عليه واستحسانه ما عليه الغير» [1] .

حدد النديم هذه المقومات للهوية الحضارية فى أول عدد من أعداد مجلة (الأستاذ) ، وظل يلح عليها فى كل الأعداد . .

---

(١) المصدر السابق . العدد الأول . ص ١٢ - ١٤ .

● فالدين الإسلامي «هو مرجع المجد وأصل الشرف..»[1].. و«هو أقوى دعائم العمران»[2].. والسبب الوحيد في المدنية وتوسيع العمران، أيام كان الناس عاملين بأحكامه..»[3].. «وليس هناك حبل متين تُقاد به الأمم غير الدين..»[4].

ولذلك، يتصدى النديم لمزاعم غلاة الأوروبيين الذين يزعمون أن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين، كاشفا عن دوافع التعصب الديني التي تدفعهم إلى هذه المزاعم.. وفاضحا «الأجراء» و«العملاء» - من «الطائرين حول دعاة أوروبا»! الذين يبشرون بيننا بهذه المفتريات. فيقول: «.. ومنهم القائلون إن الدين الإسلامي مانع من التقدم.. وأصحاب هذا القول كالببغاء.. فقد قلدوا في هذا الوهم أوروباويا في قوله الذي طارت به الصحف[5].. وفاتهم أن الشرق ممتلئ بأديان تغاير الإسلام، والآخذون بها أضعاف الآخذين بالإسلام، ومع ذلك فإن تقهقرهم أكثر من المسلمين، وحالهم أحط من المسلمين بدرجات..».

كما يفند النديم دعوى هذا الزعيم الأوروبي المتعصب، بأن الإسلام هو سبب تعصب المسلمين دينيا ضد الغربيين.. «فدعوى هذا الأوروبي أن الإسلام سبب حركات الشرق ضد الغرب، وأنه لا سكون للأفكار إلا بإعدام القرآن والآخذين به (؟!) - مدحوضة بالحروب المتواصلة بين دول أوروبا المسيحية من عهد الرومانيين إلى

---

(١) المصدر السابق. العدد الثاني والعشرون. ص ٥١٩.

(٢) المصدر السابق. العدد الخامس والعشرون. ص ٥٩٣.

(٣) المصدر السابق. العدد الخامس عشر. ص ٣٥٢.

(٤) المصدر السابق. العدد السابع عشر. ص ٣٩٤.

(٥) الإشارة إلى السياسي الاستعماري الإنجليزي وليم غلادستون (١٨٠٩ - ١٨٩٨م).

الآن . وكلما كثرت مدنية دولة أوروبية كثر تفننها فى آلات القتال والتدمير ؛ مع سكون الشرق هذه القرون الطويلة ، لايتحرك إلا دفاعا عن وطنه الموطوء بأقدام أوروبا الملوثة بالدماء الشرقية ، ولايحركه إلا فتنة أوروبية ؛ ولا داعى لأوروبا فى تحريك الممالك الشرقية إلا الطمع الملكى والتعصب الدينى .

وإنما لشدة تمسك هذا الأوروبى بدينه ؛ كره أن يرى دينا غيره ، وأحب أن يسمع صدى صوته فى بلاده ، لتميل النفوس إلى رجل غيور على الدين .

وقد كان للإسلام اليد القوية أيام صولته ، فلم يبطش بها بمواطنيه ولا مدها إلى معاهديه ؛ بل ولا حرك بها عصاه نحو المتوحشين عند نزولهم على حكمه تحت سطوة سلطانه . ولم يكن عند رجاله من التعصب ما يحملهم على قهر الناس بالتضييق على ترك أديانهم ، بل خيَّر من نازلهم بين الأخذ به أو الاستيطان على حكمه ، وهذه خصوصية له من بين الأديان ..» :

« فلم يكن الإسلام ، ولا الأديان الشرقية السبب فى التأخر ، كما يزعم كثير من الطائرين حول دهاة أوروبا ، بل إن الدين الإسلامى كان السبب الوحيد فى المدنية وتوسيع العمران أيام كان الناس عاملين بأحكامه..»[1] .

وكما انتقد النديم دهاة أوروبا ، المتعصبين لدينهم ضد الإسلام ، انتقد كذلك الماديين الأوروبيين الذين يرون « أن الأديان هى سبب التخاذل الحاصل فى العالم ؛ ولا سبيل لمنعه إلا تركها جملة وإعدامها من الوجود » ! . ووجه حديثه إلى «الأجراء» «المقلدين»

---

(١) (الأستاذ) . العدد الخامس عشر . ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٥٢ .

من أبناء أمتنا ، الذين كانوا ينقلون هذه النظريات الأوروبية وينشرونها فى بلادنا . . » فهذا الفريق مقلد لدهاة أوروبا ، الذين أفسدوا كثيرا من الأخلاق الشرقية بهذه الترهات والأوهام . مع أننا لو فرضنا عدم صحة الأديان ، وأنها وضعت نظامات فى أيام الخشونة والجهالة ، ولا لزوم لها الآن مع وجود القوانين الوضعية ، لكان من الواجب احترامها واعتبارها ، فإن تأثير وعدها ووعيدها فى النفوس لايبلغه قانون ، فإن الشخص يمكنه أن يفر من عقوبة القانون ، ولكنه لايمكنه أن يفر من عقوبة الله . وما ساعد الملوك على النظام وبث الأمن إلا القانون الدينى . . والدين هو الذى يحمل العسكرى على بيع حياته . . ولو علم أن لابعث ولا أجر على عمله لفر من ساحة القتال ، فإن أرغم قاتل مكرها . ولا يقال إن الشرف الوطنى يلزمه باقتحام غمرات الموت ، فإنه إذا علم أنه يقدم للموت ليفوز الملك أو الأمير بمراده ، ولا ثواب ولا نعيم ، فإنه لايبيع حياته بلذة غيره»[1] . .

وهكذا ، يقف النديم مدافعا عن الإسلام ، وعن مطلق الدين والتدين ، أمام الفكر الأوروبى ، الذى تنشره فى بلادنا صحافة « الأجراء » و « المقلدين لدهاة أوروبا » و « الطائرين حول هؤلاء الدهاة » ، سواء أكان هذا الفكر الأوروبى تعصبا نصرانيا ضد الإسلام ، أم مادية رافضة لمطلق الدين . .

والنديم الذى عاش فى عصر « المسألة الشرقية » ، والصراع الأوروبى مع الدولة العثمانية ، قد أبصر مكانة الإسلام فى هذا الصراع . . فعداء أوروبا لهذه الدولة العثمانية كان منطلقه العداء

---

(١) المصدر السابق . العدد الخامس عشر . ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

للإسلام ، الذى يحول بين الغرب وبين تنصير المسلمين ، والذى يحمى الشرق من الاستسلام لهيمنة الغرب ونهبه واستغلاله . .

«ولو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة .. ولكن المغايرة الدينية وسعى أوروبا فى تلاشى الدين الإسلامى أوجب هذا التحامل».

ويوجه النديم قوارص الكلمات إلى تيار التقليد لأوروبا ، الذى احترفت صحافته ذم الدولة العثمانية ، فيقول : « وإننا نرى كثيرا من **المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا** يذمون الدولة العلية ، ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الحكام ، ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتا وأحسنها تبصرا وأقواها عزيمة ، **فإنها فى نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدوانى ، لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثمانى عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا ، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان ، وكثير من اللغات ، والفتن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهبا أو يقرب منهم جنسا..»**[1] !

فالنديم الذى سبق وأوردنا له الشواهد على دعوته لإصلاح الدولة العثمانية ، وتجديد شباب إدارتها ، هو الذى يسفه هنا دعاوى «المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا» ! ضد الدولة العثمانية ، لأنها دعاوى معادية لهذه الدولة ، لحساب الرصيد الاستعمارى الأوروبى ، وليست دعوات للإصلاح تستهدف تقوية السياج العثمانى حماية للشرق وحضارته فى الصراع مع الأوروبيين - كما كان حال وموقف النديم وتيار الجامعة الإسلامية إزاء العثمانية والعثمانيين . .

(١) المصدر السابق . العدد الثانى والعشرون . ص ٥١٣ .

هذا عن الدين - والدين الإسلامى على وجه الخصوص - كثابت من ثوابت الهوية الحضارية الشرقية . . فهو « أقوى دعائم العمران . . والسبب الوحيد فى المدنية . . ومرجع المجد وأصل الشرف . . الذى تسرى جاذبيته فى الجسم سَرْى الماء فى العود» . .

● وذات المكانة التى أحلّها النديم للدين فى ثوابت الهوية الحضارية . أحلّها للغة العربية . . « فاللسان العربى . (عنده) . هو لسان الدين ، وترجمان الوطن . . واللغة العربية مرتبطة بالدين ارتباط الروح بالجسد ، وإذا فقدت الأمة لغتها فقد فقدت الدين والتاريخ الوطنى ..»[1] . .

وإذا كان النديم قد رأى فى « الدين » و « الجنسية » و «الوطنية» ثوابت الهوية الحضارية التى لايجوز المساس بها - حتى ولو اقتضت « المنافع » هذا المساس - فلقد رأى اللغة العربية ثابتا من هذه الثوابت ، لأنها « لسان الدين » و « ترجمان الوطن » و « عنوان الجامع للجنسية الحافظ له ، فالمحافظة على اللغة محافظة على الجنسية ، بل وعلى الملك وما يشتمل عليه ، ولهذا لا تميل أى دولة لنقل التعاليم من لغتها إلى لغة أخرى مهما مست الحاجة إليها ، ولاتعطى شهادة لتلميذ أدى الامتحان فى جميع العلوم بغير لغته مهما كان تمكنه من اللغة الأجنبية عن لغته ؛ وبهذه الوسيلة حفظت مقاصد الدول ، وامتازت كل أمة بخصائصها التى حفظتها لها لغتها..»[2] . .

فاللغة هى الوعاء الحافظ للخصائص التى تمتاز بها الأمة عن الأمم الأخرى . . وهى فى حال لغتنا العربية ، تزيد ، لأنها هى لسان الإسلام ، الجامع الأكبر لكل مقومات الانتماء الحضارى .

---

(١) المصدر السابق . العدد الخامس والعشرون . ص ٥٩٣ . والعدد الثامن . ص ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق . العدد التاسع . ص ٢٠٤ .

ولأن هذه هى مكانة العربية من ثوابت الهوية الحضارية ، فلقد تكالبت عليها التحديات . . وكان النديم واحداً من الذين تصدوا لهذه التحديات . . « فلغتنا الشريفة ، التى يتكلم بها الآن ـ (١٣١٠هـ ـ ١٨٩٢م) ـ أكثر من مائة مليون من الناس ، يسعى كثير من الناس ـ المحبين للغاتهم أو لذاتهم ـ فى إماتة هذه اللغة ، وتحويل هذه الألسنة عن التكلم بها إلى التكلم بغيرها ، لنفقد بفقدها المجد والشرف معاً . . »[1] . .

وفى مقدمة التحديات اللغوية للعربية ، التى تصدى لها قلم النديم :

١ ـ تحدى اللغة التركية ، فى الولايات العربية التى حكمها العثمانيون . .

٢ ـ وتحدى اللغات الأوروبية الزاحفة على الشرق العربى ، فى ركاب الاستعمار ومدارس التنصير . .

٣ ـ وتحدى اللغة العامية ، التى يتوسل بها الاستعمار وعملاؤه من الأجراء سبيلاً لإزاحة العربية من ثوابت الهوية الحضارية ، تمهيداً لإزاحة الإسلام والقرآن والتراث ، لتفقد الأمة عوامل استعصائها على التبعية والذوبان فى حضارة الغزاة . .

ينبه النديم على دور تتريك أجهزة الإدارة بالولايات العربية العثمانية ، فى تقهقر اللغة العربية . . فلقد « كان استعمال اللغة التركية فى المخابرات الرسمية من أسباب تقهقر اللغة العربية . . ولولا وجود الأزهر بمصر لعدمت اللغة العربية فى تلك الفترة التى حكمت فيها الدولة العثمانية البلاد العربية . . »[2] . .

---

(١) المصدر السابق ـ العدد الثامن ـ ص ١٦٩ .
(٢) المصدر السابق ـ العدد الثامن ـ ص ١٧٦ .

ويشيد بتجربة مصر الحديثة ، التى تعربت إدارتها . . وبدور الأزهر ، ومكانة القرآن ، فى استعادة العربية لعافيتها فى هذه التجربة المصرية . . « . . فلما تركت الأقلام التركية ، وصارت المحررات الرسمية كلها عربية ، تقدمت اللغة تقدما غريبا ، ونبغ ألوف من المتعلمين فى الأزهر والمدارس . . وكان لتقدم أهل الأزهر على أهل المدارس فى الإنشاء سبب واحد هو حفظ الأزهريين للقرآن الكريم فى الصغر ، فذهن الواحد منهم محشو بمادة البلاغة وقاموس الفصاحة وأبدع أسلوب إنشائى . .»[1] . .

ولذلك ، فهو يدعو إلى تعريب إدارات الدولة العثمانية فى الولايات العربية ، وذلك « بتعليم أفراد من أبناء الترك والكرد والجركس باللغة العربية ، ليكونوا مؤهلين لولاية الأقضية والولايات العربية فى الشام والعراق واليمن والحجاز . . فحياة اللغة العربية فى بنى الترك خصوصا وفى بنى العرب عموما حياة للدولة من طريق معنوى»[2] . .

أما تحدى اللغات الأوروبية للغتنا العربية ، فلقد نبه النديم على مسالكه المتعددة ، ومنها تهجين العربية بالكلمات الأجنبية . . وجعل هذه اللغات الأجنبية هى لغة التعليم فى بلادنا . . والدونية التى تجعلنا نتعلم لغات الأجانب لنتخاطب وإياهم بها فى بلادنا ، بدلا من أن نجعلهم يتعلمون لغتنا كضرورة من ضرورات تعاملهم معنا فى أوطاننا ، مع جعل تعلمنا للغات الأجنبية سبيلا لترجمة ما لدى الآخرين من علوم نحتاج إليها . .

---

(١) المصدر السابق . العدد الثامن . ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثامن . ص ١٨٣ .

يعرض النديم لهذه التحديات اللغوية ، فيقول : « . . ولا يرجع باللغة القهقرى إلا أمران :

الأول : كثرة استراق الكلمات الأجنبية واستعمالها فى مخاطباتنا الكتابية والخطابية . .

والثانى : نقل التدريس من اللغة العربية إلى أية لغة أجنبية ؛ فمتى حصل هذا فى أية أمة فقد فقدت لغتها وتبعها الدين والتاريخ الوطنى ، فإن اللغة مرتبطة بالدين ارتباط الروح بالجسد.. فيجب توحيد التعليم ، لئلا يطلع الأبناء لا هم مصريون ولا أجانب ، ويكوّنون من هذا الامتزاج العجيب لغة جديدة لا قاعدة لها ولا ضابط ، ويعز على الآتى بعدنا أن يعرف دينه أو كتابه لاحتياجه إلى مترجم يترجم له العربية إذ ذاك... »[1] !

أما تصدى النديم لتحدى العامية للفصحى ـ والتى يسميها اللغة الصحيحة ـ فلقد يبدو غريبا على الذين اشتهر لديهم النديم «كأدباتى» ، ناظم بالعامية ، تفوّق فى هذا الفن على أساطينه ومحترفيه . . ذلك أن الرجل كان يتوسل ـ فى الصحف التى يصدرها ـ بفصول مكتوبة بالعامية ـ اللغة الدارجة ـ إلى الذين لايقدرون على مطالعة الفصحى أو فهمها ، ولا يرغبون فى القراءة بها ، وذلك ارتقاء بهم ـ بواسطة السماع ـ نحو القراءة بالفصحى وفهمها ، وبلوغا إلى حيث نستغنى عن العامية كل الاستغناء . . وهو يفصح عن منهجه هذا ، وعن مقصده ، وهو يتحدث عن موقف مجلته (الأستاذ) من هذا الأمر ، فيقول : « إنها تشتمل

(١) المصدر السابق . العدد الثامن . ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ .

على فصل قصير باللغة الدارجة ، لنحول به العاصي الجاهل من كراهة سماع الكتب إلى محبتها، فينجر به الأمر إلى سماع الكلام الصحيح، وهناك لا يلزم كتابة غير الصحيح .... فاللغة الصحيحة هي الحية، لاستعمالها بين الخاص والعام من عقلاء الأمة، واللغة الدارجة هي الميتة، لعدم استعمالها في غير الضرورات التي يقتضيها الحيوان بلا لغة.. »(1)!

ولأن هذا هو موقف النديم ، مع الفصحى ـ الصحيحة . . الحية ـ لا مع العامية ـ الدارجة . . الميتة ، كان صراعه ضد دعاة إحلال العامية محل الفصحى موقفا ثابتا على مر حياته الفكرية والصحفية . .

ففى يونيو سنة ١٨٨١ م كتب فى جريدته (التنكيت والتبكيت) مقالا اتخذ له عنوانا ذا دلالة عميقة فى الدفاع عن العربية . والتنبيه على مكانتها فى ثوابت الهوية الحضارية ـ وهو عنوان : «إضاعة اللغة تسليم للذات» ! . . ويومئذ دارت معركة فكرية بين حراس العربية ـ النديم ، ومعه أحمد أفندى سمير وإبراهيم أفندى الهلباوى ـ وبين واحد من خريجى مدارس التنصير والتغريب هو أمين شميل (١٢٤٣ ـ ١٣١٥هـ ١٨٢٨ ـ ١٨٩٧م) ـ الذى استوطن مصر مع شقيقه شبلى شميل (١٢٧٦ ـ ١٣٣٥هـ ١٨٦٠ ـ ١٩١٧) منخرطين فى تيار التبشير بالحضارة الغربية بديلا للحضارة الإسلامية ، من خلال المنابر الثقافية والإعلامية ، كالمقتطف . . والمقطم . . وجريدة الحقوق ـ التى أصدرها أمين شميل . .

---

(1) المصدر السابق : العدد العشرون ـ ص ٤٦٨ ، ٤٧١ .

وفى تسعينيات القرن التاسع عشر الميلادى ـ ومرحلة إصدار النديم لمجلة (الأستاذ) ـ تجدد جهاده دفاعا عن الفصحى : الصحيحة الحية ، ضد دعاة العامية ، الدارجة الميتة : بمناسبة تزعم المهندس الإنجليزى المستر «وليم ويلكوكس» (١٨٥٢ ـ ١٩٣٢) الدعوة إلى استبدال المصريين العامية بالفصحى . . وعن هذه المعارك اللغوية ، يحدثنا النديم فيقول : « لقد سبق وكتبنا فى العدد الثانى من جريدة « التنكيت والتبكيت » فصلا تحت عنوان : « إضاعة اللغة تسليم للذات » ، فعارضنا فيه الفاضل الكاتب أمين أفندى شميل برسالة تبادل الجدال معه بسببها أحمد أفندى سمير وإبراهيم أفندى الهلباوى . والآن رأينا دعوى المستر وليم ويلكوكس التى مؤداها أن المصريين لاتوجد فيهم قوة الاختراع ، ولا مانع لهم إلا اللغة الصحيحة : وأنه إذا تحولت الأفكار وحتمت استعمال اللغة الدارجة فى المخاطبات والتآليف العلمية والتدريس أمكن المصريين أن يخترعوا . . فرجعنا إلى رسالة أمين أفندى شميل ، وقلنا : ما أشبه الليلة بالبارحة ! . . » .

ثم كشف النديم عن المقاصد الحقيقية من وراء الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى ـ لغة القرآن الكريم . . إنها قطع صلة الأمة بالقرآن مصدر عقيدتها وشريعتها ، وصبغة حضارتها ـ « فالعربية بها نزل القرآن الشريف ، الذى هو الآية الكبرى والحجة العظمى لنا معاشر المسلمين ، فهو الداعى لحياة اللغة العربية الصحيحة ، وهو المقصود لكل محارب للغة ، ساع فى إماتتها . . وماذا نصنع بكتبنا ، التى تجل عن الحصر ، إذا تكلمنا باللغة الميتة العامية ؟ أنحرقها ؟ أم نترجمها بالكلام الفارغ ؟ ولماذا لم تكتب الإنكليز كتبهم العلمية وجرائدهم باللغة الدارجة عندهم :

تعميما للفائدة التي تريد أن تعممها في مصر؟! وهل ترى أن المصريين إذا قرءوا القرآن بالعامية، عند استعمالها ونسيان غيرها، أيرضى عنهم المسلمون؟ أم يعدونهم منهم؟! وهم يعتقدون أن تغيير حرف منه أو تقديمه على ما قبله كفر مخرج للفاعل من الدين؟!..»[1] . .

فالدعوة إلى العامية : معادا للقرآن ، وسلخ للأمة عن دينها ، وقطيعة معرفية مع تراثها وتاريخها وهويتها الحضارية وعزل لمصر عن الجسد الإسلامى الكبير ! . .

ومقصد آخر من مقاصد الداعين إلى العامية ـ من الإنجليز والأجراء الساعين إلى إحلال الحضارة الغربية محل الحضارة الإسلامية ـ هو تأبيد التبعية للاستعمار فى بلادنا . . ذلك أن تميزنا اللغوى هو دافع من دوافع حركتنا للتحرر من الاستعمار . . «وكم من أمم خضعت لأمم أعظم منها قوة وأشد منها بطشا، وبقيت محافظة على لغتها، فبعثتها إلى الاستقلال وعزة الملك ، كالترك والفرس واليونان وأسبانيا ورومانيا والبورتغال والبلغار ، ولو تركوا لغتهم، واستعملوا اللغة الحاكمة، لماتت وتجنسوا بالجنسية المتغلبة..»[2] . .

وإذا كانت هذه الأمم قد اعتصمت بلغتها : كجامع جنسى (قومى) ، فإن العربية بالنسبة لأمتنا هى أكبر وأعظم من الجامع الجنسى والقومى . . فالتهاون فيها « ينسينا القرآن ، الذى لو ترجم بأفصح لغة أجنبية لجاء عبارة عن حكاية يقتدر على إنشائها أى كاتب ، ولضاعت بلاغته العربية . . فبقاء العربية الفصحى هو

---

(١) المصدر السابق ـ العدد العشرون ـ ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٦ .

(٢) المصدر السابق ـ العدد العشرون ـ ص ٤٦٩ .

بقاء الدين والجنس معا . . وحاجتنا الدينية إلى لغتنا أشد من حاجة الأمم غير المسلمة إلى لغاتها ، فإن الإنجيل لما ترجم تناولوه كما تناولوا الأصل ، والقرآن لو ترجم بلغة أخرى لعجزت الترجمة عن أداء مفهومه ومنطوقه . . »[1] . .

* * *

وفى التصدى لمزاعم عجز العربية عن أن تكون لغة العلم الحديث ، لم يقف النديم ، فى دحض هذه المزاعم ، عند الاستشهاد بالتاريخ ، الذى نهضت فيه بلغة العلم القديم ، وإنما استشهد أيضا بتجربة مصر الحديثة ، على عهد محمد على باشا (١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م) والحقبة السابقة على فرض اللغات الأجنبية على مدارس مصر ـ (١٨٩٢ م) بقوة الاحتلال . . « فهذه المدارس المصرية ، قرئت فيها العلوم القديمة والحديثة ، الأصلية والمترجمة ، ولم يفتها شىء مما كتب فى أوروبا ، ولم تتغير كيفية التدريس من اللغة العربية إلى اللغة الفرنساوية أو الإنكليزية فى بعض العلوم إلا فى هذه السنة ـ (سنة ١٨٩٢م) . . وما هو الموجب لتعليم مثل التاريخ والطب والهندسة والجغرافية باللغات الأجنبية ، والمتعلم سيُستَخدَم بين من لا يعرفون كلمة أجنبية ، وهم فلاحو مصر وعوامها ، والكتب العربية فى هذه الفنون توجد أحمالا فى المخازن ، فأى ضرورة تلجئنا لتركها وشراء غيرها بلغة أخرى ؟! . . **إن نقل التعليم من لغة البلاد إلى لغة أجنبية هو نقل للتلميذ من الجنسية والدين معا»** ! . .

---

(١) المصدر السابق . العدد العشرون ـ ص ٤٧٠ ، ٤٧١ .

ثم تنبأ النديم باندحار كل هذه الدعوات ، التى تمثل تحديات دينية وقومية للعربية ، فقال : «إننا نعلم علم اليقين أنه لو ظهر ألف داع، بل مئات ألوف من دعاة أوروبا لاستعمال لغة تميت لغة القرآن ما وجدوا آذانا سامعة..»[1] !

ولم يكن النديم داعية للجهل باللغات الأجنبية . . وإنما كان داعية لإتقان العربية كى نستطيع أن ننتفع بما نتعلم من لغات أجنبية فى الترجمة التى تطلعنا على ما نحتاج مما لدى الآخرين «فالغرض إنما هو تعريب اللغة الأجنبية بعبارة عربية ، وعكسه ـ (أى الترجمة من العربية إلى غيرها) ـ حتى تجتلب المنافع وتتبادل الفكر ، ولا ريب أن العاجز عن اللغة العربية لايقدر على ذلك ، اللهم إلا بعبارة منسوخة المعنى خالية من الثمرة . .»[2] . . «ولو فرضنا وتعلمنا اللغات الأجنبية ، وتكلمنا بها عند الحاجة إليها ، لوجب علينا أن نحافظ على لغتنا العربية ونستعملها فى معاملاتنا الخاصة بنا وبين أبنائنا وأهلينا وفى كتب ديننا وعلومنا الأصلية والفرعية ؛ لبقاء الدين والجنس ببقائها . .»[3] .

* * *

ولم يقف جهاد النديم فى سبيل العربية عند التصدى للتحديات المهددة لوجودها ـ التركية . . والعامية . . واللغات الأجنبية الغربية ـ وإنما مد آفاق هذا الجهاد ليشمل الدعوة إلى النهوض بلغة القرآن الكريم ، وذلك لتفى باحتياجات النهضة الحديثة ؛ وتكون قادرة على منازلة التحديات اللغوية ، والانتصار عليها .

---

(١) المصدر السابق . العدد العشرون . ص ٤٧٣ ـ ٤٧٥ .

(٢) المصدر السابق . العدد الخامس والعشرون . ص ٥٩٤ .

(٣) المصدر السابق . العدد العشرون . ص ٤٧١ .

فهو يحتفى بتأسيس « مجتمع اللغة العربية بمصر » (١٣١٠هـ ـ ١٨٩٣م) ـ برئاسة السيد توفيق البكرى ـ (١٢٨٧ ـ ١٣٥١هـ ـ ١٨٧٠ ـ ١٩٣٢م) الذى سبق ودعا إلى إنشائه المرحوم عبد الله باشا فكرى (١٢٥٠ ـ ١٣٠٦ هـ ١٨٣٤ ـ ١٨٨٩م) ـ ويشير إلى سابق دعوته هو إلى إنشائه (١٢٩٨ هـ ـ ١٨٨١ م) بمقاله الذى نشره فى (التنكيت والتبكيت) تحت عنوان « إضاعة اللغة تسليم للذات »[1] .

ويسهم النديم ـ إسهام العالم الخبير ـ بتقديم المقترحات الفنية والتنظيمية إلى « مجتمع اللغة العربية » الوليد . . فهو يقترح له تنظيما شاملا لمختلف التخصصات ، بحيث يكون « المجتمع ـ (المجمع) ـ عاما فى كل ما يتعلق بالفنون العربية . . قسم مختص بالمواد اللغوية . وقسم لعلوم الآليات . . وقسم للتاريخ وتقويم البلدان . . وقسم للترجمة . . وقسم للرياضيات » كما يقترح النديم على « مجلس النظار » ـ (مجلس الوزراء) ـ اعتماد «مجتمع اللغة العربية» كجمعية لغوية «وإلزام مدرسى اللغة العربية فى المدارس وغيرها بالنقل عنها . . ثم تتناقل الجرائد الخلية كلماتها وتكررها بالمناسبات لتكون ـ (وسائل الإعلام) ـ فى مقام مدرسين يعلمون القراء من فوائدها ، وبهذه الطريقة تتداول الكلمات المقابلة للكلمات الأجنبية ، فتزاحمها العربية مزاحمة تضيق نطاقها..» .

كما يقترح النديم على الحكومة اعتماد هذا « المجتمع اللغوى » مرجعية فكرية للدولة « تحيل عليه النظر فى المؤلفات الجديدة ليقرر منها الموافق لنشره ويمنع ما يضر بالأخلاق والدين والسياسة » . .

---

(١) المصدر السابق . العدد التاسع والعشرون . ص ٦٧٣ .

ويتوجه إلى « المجتمع اللغوى » برجاء وطنى « وهو أن يبعد عن الدخول فى السياسات .. وأن يحفظ الوصلة بينه وبين الأزهر المنير ، بعدم تعرضه لشىء مما هو من خصائص الجامع وسماحة شيخه ، وبهذا يمكنه أن يستعين بأشياخه فى كثير من مواضيعه العلمية ، فإن أساسه مبنى على العلوم الأزهرية ؛ وأعضاؤه يكون معظمهم من الأزهريين الذين يقدرون على التصرف فى العبارات بالاستنباط أو القياس »[1] .

هكذا دافع النديم عن العربية ، لغة القرآن ، وجامعة الجنس ، وثابت هوية الأمة الحضارية ، وامتد دفاعه عنها عبر مسيرته الفكرية .. منذ أن رفع - فى صحيفته الأولى - شعار « إضاعة اللغة تسليم للذات » .. وحتى المقالات الضافية التى دافع بها عنها فى مجلة (الأستاذ) ..

● ومع « الدين » و « اللغة » - فى جوامع الانتماء الثقافى والحضارى - يأتى جامع « الوطنية » ، الذى يحفظ استقلال الأمة واستقلال الوطن عن الانقياد للغير والتبعية للآخرين ؛ ذلك « أن جهل الوطنية وحقوقها وواجبات أهلها يسهّل على الجاهل الانقياد للغير وتسليمه الوطن ، غرورا بالظاهر ، وجهلا بالعواقب ، إذ لايعلم من الوطنية إلا أنه ساكن بهذه الأرض ، ينتفع بالسكنى فيها انتفاع الوحش بالأودية والمغارات ؛ فلا يعرف تاريخ الحياة الوطنية ولا الأمم المؤسسة لها ولا شرف استقلال الاستيطان ولا مجد وقاية المأوى ، وبهذا يكون بين

(١) المصدر السابق . العدد التاسع والعشرون . ص ٦٧٣ .

يدى الغير بمنزلة أجنبى يستعمله فى مهنته ، وليس له إلا أجر أجير ومنزلة نزيل . . » .

فالوطنية ليست سُكْنَى فى بقعة جغرافية ، وإنما هى جامعة لشرف استقلال الوطن ، ومجد الأمة ، حتى لا تكون هذه الأمة ـ إذا فقدت هذا الجامع ـ فى أرضها بمنزلة الغريب والأجير والنزيل! . .

● وكذلك الحال ـ فى عوامل وجوامع الانتماء عند النديم ـ مع جامع « الجنسية » . . لأن التفريط فى الجنسية ، والتجنس بالجنسيات الأجنبية ، يجعل المنسلخ من جنسيته متخذا جنسيته عدوا ! . . « فإذا تجنس المرء بغير جنسيته، بالتقليد واتباع محسنات الغير ومجاراته فى أقواله وأفعاله، وقعت جنسيته عنده موقع العدو، وعدم فوائدها التى يأتى بها اجتماع أفراد الجنس»[1] .

فالجنسية جامع من جوامع استقلال الذات الوطنية والحضارية ، تعصم الذات من « التقليد للغير واتباع محسناته ، ومجاراته فى أقواله وأفعاله » ! .

● وإذا كنا نتحدث اليوم عن « الاقتصاد المستقل » و « التنمية المستقلة » كشرط من شروط « المشروع الحضارى المتميز » فلقد كان النديم علما من أعلام تيار الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية ، الذى ارتاد الدعوة إلى هذا الاستقلال الاقتصادى ، فى مواجهة الهيمنة الاقتصادية الغربية منذ بدايات المواجهة مع النهب الاقتصادى الغربى لثروات عالم الإسلام . . والكاتب الأمريكى

(١) المصدر السابق . العدد الأول . ص ١٣ .

«لوثروب ستودارد» - في كتابه (حاضر العالم الإسلامي) - يقول عن تيار الجامعة الإسلامية - الذي بلوره وقاده جمال الدين الأفغاني : إن «غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية.. هي: ثروة المسلمين للمسلمين، وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي هي لهم يتنعمون بها، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها. وهي نفض اليد من رءوس المال الغربية، والاستعاضة عنها برءوس مال إسلامية، وفوق جميع هذا، هي تحطيم نواجذ أوربة، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين، وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجمارك، وسائر العقود التي مادامت خارجة من أيدي العالم الإسلامي فهو يظل عالة على الغرب» [1] !

فنحن أمام برنامج للاستقلال الاقتصادي ، يمثل قسمة من قسمات استقلال الهوية الحضارية للأمة ، وسمة من سمات مشروع نهضتها المستقلة .. وفي إطاره نقرأ ما كتبه النديم عن جناية التقليد للغرب والاستهلاك لمصنوعاته على اقتصاد الأمة وثروتها .. «فلما حصل الاختلاط ، وامتدت التجارة ، واتسع نطاق الزراعة ، وساكن الأجنبي الوطني ، وتبادل الفريقان الزيارة : قبّح الغربي اقتصاد الشرقي، وعدّه بقاء على الهمجية والتوحش، وحسّن له التوسع في المآكل والمشارب وآنيتها.. وما قصد بذلك إلا تحويل ما بيده من النقود إلى بلاده، واتخاذه أجيرا [2] .. فبعد عقد

---

(١) (حاضر العالم الإسلامي) مجلد ١ ص ٣٢٦ . ترجمة عجاج نويهض - تعليق : شكيب أرسلان - طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .

(٢) (الأستاذ) العدد الثالث - ص ٥٣ .

المعاهدات التجارية مع دول أوروبا، جيء بمصنوعاتها إلى مصر، فهجم عليها الأهالي، وأقبلوا على البضائع الأجنبية وتركوا صنائعهم وصُنّاعهم.. ولا زال الأهالي يميتون الصنائع شيئا فشيئا حتى صارت الملابس والفرش والأواني، وكل مايلزم الإنسان من ضروريات الأثاث من صناعة الأجانب، وبهذا ماتت الصناعة موتا[1].. مع أنه يوجد بالمحلة الكبرى صناع يصنعون الأقمشة اللطيفة المحتاج إليها لباسا وأثاثا مع إتقان الصنع وجودة القماش وحسن المنظر، لكن الناس مغرمون بمصنوع الأجنبي الذي لايساوي شيئا في جانب مصنوع البلاد[2].. لقد أماتوا بهذا الإسراف الاقتصاد الشرقي.. ولما لم تكفهم وإرداتهم لاستحضار الآلات والمطاعم والمشارب الجديدة اقترضوا ورهنوا الأملاك والأطيان!..» [3].

إنها التبعية الاقتصادية التي جلبتها نزعة التقليد والمحاكاة للغرب.. وعلاجها - في رأي النديم - هو استقلال الهوية، الذي يجعلنا نميز في ما لدى الغرب بين « النافع - الضروري » وبين ما لا يوافق «أخلاقنا وعاداتنا» ... «فلو أخذنا من محسنات الغرب ما لابد منه، واقتصرنا على ما يوافق أخلاقنا وعاداتنا لحفظنا لأنفسنا حق الانتفاع بثمرة الاقتصاد الشرقي...» [4].

هكذا تكلم النديم عند الاستقلال الاقتصادي، سبيلا للحفاظ على الثروة، وطريقا لتنمية مكونات الاستقلال الحضاري أمام

---

(١) المصدر السابق. العدد الثامن. ص ١٨٦، ١٨٧.
(٢) المصدر السابق. العدد السابع والثلاثون. ص ٨٩٤.
(٣) المصدر السابق. العدد الثالث. ص ٥٥.
(٤) المصدر السابق. العدد الثالث. ص ٥٦.

مخاطر و إغراءات التقليد والمحاكاة . . وكأنه ـ رحمه الله ـ يتكلم عن مشكلاتنا ، ساعة كتابة هذه السطور ! . .

* * *

● والنديم ، الذى كانت حياته « صيحة فى سبيل الحرية » ـ للفرد . . والوطن . . والأمة ـ والذى صارع قوى الاستبداد ، وهرب بحريته من حبل المشنقة . . وعانى من النفى والتغريب عن وطنه ـ لم يخلط ـ هذا العاشق للحرية ـ بين مفهومها الإسلامى ، الذى ينتمى إليه ، ويزكيه ، ويدعو لإشاعته ، وإقامة نظمه ومؤسساته ، وبين مفهومها الغربى ، القائم على « الإباحة .. وعدم التعرض لأحد فى أموره الخاصة » ، الذى رفضه ، معتبرا إياه « بهيمية » إن ساغت فى أوروبا ، فهى غير سائغة فى عالم الإسلام ، الذى ضبطت شريعته حقوق الناس بحقوق الله ، وحريات الناس بالأخلاق والعادات والقواعد الدينية . .

وعن هذا الملمح من ملامح منظومة الانتماء الثقافى للنديم ، كتب الرجل فقال : « .. ولئن قيل : إن الحرية تقضى بعدم تعرض أحد لأحد فى أموره الخاصة ، قلنا : إن الحرية عبارة عن المطالبة بالحقوق والوقوف عند الحدود . وهذا الذى نسمع به ونراه رجوع إلى البهيمية وخروج عن حد الإنسانية ، ولئن كان ذلك سائغا فى أوروبا فإن لكل أمة عادات وروابط دينية أو بيتية ، وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين ولا قواعدهم الدينية ولا عاداتهم . والقانون الحق هو الحافظ لحقوق الأمة من غير أن يجنى أو يغرى بالجناية عليها بما يبيحه من الأحوال المحظورة عندها.. »[1] .

---

(١) المصدر السابق . العدد التاسع عشر . ص ٤٣٩ .

وعندما يعرض النديم لتطبيقات المفهوم الغربى للحرية ـ مفهوم الإباحة وعدم التعرض لأحد فى أموره الخاصة ـ على «حرية المرأة»، وما أثمرته تطبيقات هذا المفهوم من إباحة الزنى بالتراضى والاختيار، دون مراعاة للضوابط الشرعية . . يرى النديم فى ذلك « حرية مدنية ينفر منها البهيم . . وهى لاتوافق عوائد أهل الشرق ولا أديانهم، فقد اتفق المسلمون والنصارى واليهود والمجوس على الغيرة على النساء وصيانتهن؛ وأجمعوا على تحريم الزنا وقبحه، فإطلاق الحرية فى هذا الباب مذمومة . . وما سمعنا بمثل هذا فى الجاهلية الأولى . . »[1]!

ولا يحسبن أحد أن موقف النديم هذا كان نابعا من عداء للمرأة . . فنساء مصر ـ قبل سنوات طويلة من حديث قاسم أمين (١٢٨٠ ـ ١٣٢٦هـ ١٨٦٣ ـ ١٩٠٨م) عن تحريرهن ـ عندما تطلعن إلى إصدار مجلة نسائية؛ قد وقع اختيارهن على عبد الله النديم . . وعن هذا المشروع ـ لإصدار جريدة (المربى) الأسبوعية ـ للمرأة والطفولة ـ كتب النديم يقول : « تقدمت لنا كتابة من ثلاث وعشرين سيدة يطلبن إنشاء جريدة تختص بهن . . وهذا الذى حملنى على إجابة طلبهن فى نشر جريدة أسبوعية تسمى (المربى) . . وسنشرك معنا بعض الأفاضل الأطباء لتحرير ما يختص بالأمراض والحوامل . . وإنا نشكر السيدات اللاتى اقترحن هذا الاقتراح البديع؛ كما نثنى عليهن فى اختيار هذا الضعيف ـ (النديم) ـ لهذه الخدمة، وقد عللن ذلك بقولهن : «إنه لايقدر على تحرير جريدة بلساننا ولسان الأطفال إلا مثلك؛ فلذلك رجوناك هذا الرجاء» . .

---

(١) المصدر السابق . العدد الثامن والعشرون . ص ٩١٢ .

ثم يستطرد النديم ، فيدعو النساء إلى الإسهام فى تحرير هذه المجلة بالأفكار والمقالات . . فيقول : «وإنى كذلك ، أرجوهن أن يبعثن لى أفكارهن فى المواضيع التى تطرأ عليهن . . نشرا لفضائل سيدات العصر ، كما نشر المتقدمون فضائل من عاصروهن . ولهن أن لا نصرح باسم واحدة منهن إلا من شاءت ذلك . . والله تعالى يوفقنا لما فيه رضاه ونفع الأمة ذكرانا وإناثا»[1] .

وفى هذا الذى كتبه النديم بيان على أن النموذج الذى كان فى فكره ، لهذه النهضة النسائية ، لم يكن النموذج الغربى - الذى رأى فى حريته وتحريره « حرية مدنية ينفر منها البهيم » ! - وإنما كان نموذج الحرية والتحرير للمرأة الشرقية هو النموذج الشرقى الإسلامى فى عصور ازدهار حضارتنا الإسلامية . . فلقد كان النديم يريد - وفق عبارته - « نشرا لفضائل سيدات العصر كما نشر المتقدمون فضائل من عاصروهن . . » .

ونقد النديم للمفاهيم والمضامين والتطبيقات الغربية فى « الحرية الشخصية » وفى « حرية المرأة » لم يمنعه من طلب الاستفادة من الجوانب الإيجابية لمفاهيم الغرب وتطبيقاته للحرية فى ميادين أخرى . . فلقد دعا إلى النظر فى تجارب الغرب فى « التعددية الحزبية » ، مع ضرورة قصر عضوية هذه الأحزاب على «الوطنيين» وتطهيرها من دعاة التقليد والمحاكاة للأفكار الغربية «الطائرين خلف المحسنات الأوروبية» ! . . فهذه «الأحزاب لا يمكن تكوينها إلا من الوطنيين ، الذين يخافون أن تطأ خيل الغرباء قبور أجدادهم الحافظة لعظام المجد الوطنى والشرف الملكى . . فعلينا أن نبحث فى

---

(١) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٨٠٤ ، ٨٠٥ .

طرق أحزاب أوروبا وروابطهم ، وكيفية سيرهم ، وموجب استمرارهم على ما هم فيه . . ولتكن لكل حزب جرائد تنشر أعماله وتؤيد أقواله . . بحيث تلزم مشربا لا تتحول عنه ، ولا تتلون بتلون المطامع . . ولا يلزم من اختصاصها أن تكون مضادة لغيرها من الجرائد في كل ما يكتب فيها ، فإن الجرائد مدارس الأفكار . . تحافظ على مبادئ حزبها ، وتجارى الجرائد في المقالات العامة والأفكار النافعة . وإلا إذا تركت الأحزاب والجرائد ، وأخذت كل ما يقال بالقبول ، من غير بحث في مصدره وما تحته من الدسائس، تحول مجرى سيلها الوطني إلى الأودية الأجنبية ، ووقعت في أشراك أوروبا وهي لا تشعر . ولتكن مطهرة من ذوى الأفكار الفاسدة ، محفوظة من الطائرين خلف المحسنات الأوروبية »[1] ! .

فهو في الحريات الفردية والشخصية ، يريد مفهوما متميزا عن المفهوم الغربي ، مضبوطا بحدود الله وحقوقه وأخلاقيات الأمة وعوائدها . . وهو في تكوين الأحزاب ، وفي صحافتها ، يريد ضبط آفاقها بالمصالح الوطنية ، وبمميزات الانتماء الثقافي والخصوصية الحضارية ، وذلك حتى لا توقعنا هذه الحريات «في شراك أوروبا . . والأفكار الفاسدة للطائرين خلف المحسنات الأوروبية» ! . .

ومن موقع العاشق للحرية ، انتقد النديم نظم التغلب والاستبداد الشرقية ، تلك التي حرمت الأمة من ثمرات نظام الشورى ، بل واضطهدت العقلاء والنبهاء خوفا على استبدادها ؛ حتى جعلتهم عبرة أخافت بها الجمهور ! . . «فلقد أخطأ الشرقيون طريق الشورى بسبب الجهالة التي عمت الأمم الشرقية ، فلم

(١) المصدر السابق . العدد العشرون . ص ٤٦٣ ـ ٤٦٥ .

يكن عند ملوكهم ثقة بأعيانهم ووجهائهم، ولايحبون كثرة العقلاء خوفا من التغلب الذى يحلم به كل ملك شرقى، وهو وهم لا حقيقة له، ولذا نراهم نبغ فى ممالكهم أناس وضعوهم تحت سوط التضييق حتى يبغض الغير طريق العقلاء والنبهاء فرارا من الوقوع فيما وقعوا فيه من البلاء والعناء...»[1] ..

وفى النظم التى سمحت بألوان من الشورى، ينتقد النديم «التعويل على استشارة أرباب الأموال وأهل الوجاهة، من غير تخير العقلاء منهم ولا تمييز الأغبياء من الأذكياء ...» فى الوقت الذى أنفت فيه هذه النظم «من استشارة الفقراء ومفاوضة الضعفاء وإن كانوا قد امتلأوا علما وكسوا نباهة»! ..

ويرد على الذين يزعمون ملاءمة الشورى للغرب دون الشرق، داعيا إلى الاقتداء بالغرب فى مسيرته الشورية، التى صحح فيها أخطاء التجربة الشورية بالمزيد من الإصرار على السير على دربها.. «فلئن قيل: إن الشورى لاتنجح فى الشرق. كما يزعم محبو الأثرة والانفراد بالتسلط. قلنا: إن اتحاد الشرقى مع الغربى فى الخلق يرد هذه الدعوى الباطلة. وإنما ثابر الغربيون على العمل بالشورى، وأخذوا يصححون الأغاليط ويراجعون الخطأ.. حتى ترتبت الملكات، وما أوصلهم لهذه الغاية إلا اعتمادهم على الفضلاء الأذكياء منهم، حتى اضطر الأغنياء والوجهاء لدراسة العلوم والفنون السياسية التى بها ترشحوا للدخول فى أندية الشورى...»[2] .

---

(١) المصدر السابق. العدد الخامس عشر، ص ٢٥١ .

(٢) المصدر السابق. العدد الثالث والثلاثون. ص ٧٦٤، ٧٦٥ .

● كذلك دعا النديم إلى إحياء عاداتنا فى التجمعات .. وفى الأعياد .. وانتقد تقليد الغربيين .. فلقد تميزت مناسبات اجتماعاتنا، تاريخيا، « بالخطب الحاوية لدراسة الأحوال وجمع الآراء وتنبيه الأمة على ما يجب لها من الضرورات .. أما جعل الزيارة - فى الأعياد - قاصرة على كل عام وأنتم بخير .. أو الاقتصار على إرسال ورق الزيارة - (بطاقات التهنئة) - بالبوسطة، تقليدا للأوروبيين، فهو جهالة، وإعدام لثمرة العيد بالمرة »[1]!.

● ولم يكن النديم متزمتا فى الموقف من الفنون - ومنها فن الغناء - السماع - لكنه كان داعية لمراعاة الخصوصية الشرقية التى ربطت الفنون « بالفضيلة والمزايا الجميلة » فدعا إلى إقامة أندية وطنية للغناء المصرى، تكون « مجالس للسماع، خالية من الغوغاء وأم الخبائث - (الخمر) - فإن التغنى بالشعر اللطيف، الحاوى للمعانى الرقيقة، المنبه لأفكار العامة للسعى خلف الفضيلة والمزايا الجميلة، مما يحرك الطباع للعمل، ويبعث فى النفوس رغبة فيما تضمنه الشعر من مقاصد الشعراء الجميلة . وحبذا لو كان لنا مغنى مصرى، خال من الخمور والمومسات والغوغاء، لا يدخله إلا أناس مشتركون فيه شهريا أو سنويا بتذاكر مخصوصة، برئاسة أشهر المغنين، كالمجيد المتفنن أمير الأغانى عبده أفندى الحمولى وأصحابه الشيخ يوسف خفاجه ومحمد أفندى عثمان وأحمد أفندى الليثى وأمثالهم، ويشترط أن يكون لهذا المغنى مجلس ينظر فيما يُغنى به من الأشعار والأدوار، بحيث يحجر على الأدوار السخيفة والضروب الخارجة عن حد الآداب، فلا يرخص للمغنين

---

(١) المصدر السابق - العدد الرابع والثلاثون - ص ٨٠٢، ٨٠٣ .

إلا بما فى سماعه تنشيط وفى كلماته معان تعجب العقلاء ويرضاها الفضلاء . كما يشترط أن يكون المغْنى المصرى تحت إدارة مصريين ، لا يشاركهم فى إدارته أجنبى ، ليكون وصفه بالمصرى جاريا على حقيقته»[1]! .

هكذا نظر النديم إلى الغناء . باعتباره فنا وطنيا جميلا ، يسهم فى تميز هوية الأمة وخصوصية حضارتها ، بل ودعا إلى جعله مؤسسة وطنية تنهض بدورها فى مواجهة التحديات التى تواجه الانتماء والتحرر والنهوض ! . .

● وإن الإعجاب ليزداد بالنديم عندما ترى اتساع آفاقه التى التمس فيها مقومات الانتماء الثقافى ومنطلقات النهوض الحضارى . . حتى لقد نبه على دور « الآثار . . والعاديات » ، بل وحتى عظام الأسلاف ومقابرهم ، فى الانتماء الثقافى المتميز لتاريخنا الحضارى المتميز . . وحذر من محاولات الغرب أن ينبش ويسرق : مع تاريخنا ، عظام العظماء من الأسلاف والأجداد ! . . فتحدث النديم إلى أبناء أمته قائلا ومحذرا : «عما قريب تُنْبَشُ قبور آبائكم وأضرحة عُبّادكم وسادتكم ، لتؤخذ تلك العظام النخرة إلى أوروبا ، حتى لا يكون هناك أثر لذى مجد من الشرقيين ، فإن خفتم من ذلك فاتخذوا أعظم الوسائل لبقاء موتاكم متوسدى تراب قبورهم ، فإننا نرى الأوروبيين ينقلون عظام موتاهم من بلاد حاربوا فيها ليحفظوها فى أوطانهم حتى يزورها الآتى ويقرأ تاريخها العجيب»[2] .

---

(١) المصدر السابق . العدد الثالث عشر . ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثانى والعشرون . ص ٥٣٠ .

فالآثار والعاديات وأضرحة الأولياء ومقابر العظماء : شواهد على المجد التاريخي ، وسلاح من أسلحة الانتماء الثقافي في مواجهة التحديات الغربية التي بلغت في الشراسة حد نبش القبور ، وسرقة العظام النخرة ، تجريدا لأمتنا من أمجادها ! . .

● كذلك وقف النديم - في كتاباته عن تراث الأمة ، الحامل لخصوصية انتمائها الثقافي - أمام مؤسستين من مؤسساتها العتيقة العريقة الموروثة . . الأزهر . . والطرق الصوفية . . ولقد تميزت وقفاته بنظرة تجديدية ، تحافظ على العراقة وخصوصية الانتماء ، مع التطلع للمستقبل الذي يستدعي تطورا من داخل النسق الفكري ؛ يحافظ على ثوابت الهوية ويستجيب لدواعي المستجدات . .

فهو يعلن أن « منكر فضل الأزهر كمنكر نور الشمس في اليوم الصائف »[1] . . وعلماء الأزهر « هم أئمة الناس في السير إلى المدنية . . وهم والملوك في رتبة الأبوة بالنسبة إلى الأمم ، بل هم الآباء الذين يؤهلون الملوك للقيام بوظائفهم ، فالرتبة العلمية هي الرتبة العليا في العالم الإنساني »[2] .

وهو يلح على الحفاظ على استقلال الأزهر عن الحكومة والدولة ، وخاصة بعد أن غدت الحكومة والدولة خاضعة لسلطان الاحتلال ، ويدعو «ديوان الأوقاف» إلى عدم المساس باستقلال الأزهر ، فيقول : «وأملنا من ديوان الأوقاف معرفة استقلال الجامع الأزهر واحترام شيخه وعدم إدخاله في الملحقات التي تصيره فرعا وهو أصل لا يصح أن يلحق بغيره استتباعا ، فإن تقلبات الأحوال

(١) المصدر السابق : العدد السادس والعشرون . ص ٦١٤ .

(٢) المصدر السابق : العدد السادس والعشرون . ص ٦٠٣ .

حذرتنا من التهاون فى مثل هذا الاستتباع . ولاينجى الأزهر من تلاعب الأفكار به إلا استقلاله تحت إدارة شيخ شيوخه . . وإن ثقتنا بالقائمين بالأعمال الآن لاتمنع من تخوفنا من المستقبل إذا استمر الاحتلال لأجل طويل ، معاذ الله »[1] !

وهذا الأزهر المستقل ـ الذى هو أصل لايصح أن يلحق بغيره ـ كان النديم واحدا من دعاة إصلاح مناهجه ، وتجديد علومه ، وتأهيل علمائه بالمعارف والعلوم التى تجعلهم مالكين لمعارف العصر مع معارف التراث . . بل وكان النديم داعيا إلى تربية علماء الأزهر تربية سياسية تجعل لهم دورا فى شئون الدولة إلى جانب أدوارهم التقليدية فى شئون الدين . . فأنت « ترى كل مشتغل بالأزهر منصرفا عن الدنيا وما فيها ، فلا يقرأ الجرائد العلمية ولا السياسية ، ولايعرف شيئا من أحوال الممالك ، ولا يقرأ تقويم البلدان (الجغرافيا) ، ولا علم له بشيء من الجارى بين الملوك والطوائف ، ولا وقوف له على حوادث الحروب واختلاف الأمم ، ولا إلمام عنده بصنعة أو زراعة أو أصول تجارة ، ولا يبحث فى مخترع يسمع به ومقترح يرد عليه ، كأنه فى جب لا ساكن فيه إلا من ماثله فى هذا التجرد الشنيع ، مع إنه يعلم أنه يطلب العلم ليكون مؤهلا للإفتاء والقضاء ، وهاتان الوظيفتان أرقى وظائف السياسة القضائية المتصلة بكثير من الفروع الإدارية . . لقد أبعدت جموع العلماء عن مجالس الأمراء لعدم اقتدارهم على مشاركتهم فى تبادل الأفكار ، إذ لايعلمون من لوازم الدولة شيئا . . »[2] !

---

(١) المصدر السابق ـ العدد الثامن والثلاثون ـ ص ٩١٩ ، ٩٢٠ .

(٢) المصدر السابق ـ العدد السادس والعشرون ـ ص ٦١١ ، ٦١٢ .

ولهذا الموقف التجديدى ، الذى اتخذه النديم ، من مؤسسات العلوم التراثية ـ والأزهر فى طليعتها ـ كان تقدير النديم لمنهاج «دار العلوم» ، الجامع بين الموروث وبين الجديد « فدار العلوم خرّجت للمعارف أفاضل حازوا فضيلتى الأزهر المنير والمعارف البهية» [١] جميعا ! . .

* * *

وفى تحديد النديم لدوائر انتمائه الفرعية ، بإطار جامع الإسلام ، قال : إنه عبد الله النديم ، الإدريسى ، الحسنى ، الأشعرى ، الشافعى ، الخلوتى ، الإسكندرى . . . » [٢] . . فذكر الطريقة الصوفية التى ينتمى إليها ـ « الخلوتية » ـ واحدة من دوائره فى الانتماء . .

لكن ثقافة النديم الإسلامية كانت ثقافة العالم الذى يرى التصوف الحق هو طريق الأئمة الذين التزموا ، فى أخذ الدين والفكر الإسلامى ، عن مصادرهما الحقة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس . . والذين رأوا التصوف سبيلا لتهذيب النفس والإرتقاء بها على سلم الرياضات الروحية ، ملتزمين فى كل مراحل الطريق بأحكام الدين وفق قواعد أهل السنة فى استنباط الأحكام . . فطريق التصوف الحق ، عند النديم ، هو «**الطريق المسلوك للقوم ، المبنى على الإخلاص فى العمل وحب الخلوة والبعد عن الناس والصمت عن اللغو وملازمة الذكر ومداومة السهر فيه والتهجد والزهد فيما فى أيدى الناس والتمسك بالسنة والإرشاد إلى الطريق المستقيم**» [٣] .

---

(١) المصدر السابق . العدد الثانى . ص ٣٦

(٢) المصدر السابق . العدد الحادى والأربعون . ص ٩٩٩ .

(٣) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٧٨٧ .

ومن هذا الموقع للتصوف الملتزم بالشريعة كان نقد النديم للبدع الفكرية - بل والكفرية - وللممارسات الخرافية التى التصقت بكثير من طرق الصوفية ، والتى حسبت على التصوف زورا وبهتانا . . فبعد أن حدد طريق التصوف الحق ، استطرد فقارن بينه وبين ركام الانحرافات والخرافات السائدة لدى كثير من المنتسبين للتصوف ، فقال : « . . وأين هذه الأصول الشريفة مما نراه الآن من الخروج عن الحدود ، واستبدال السنة بالبدعة ، وترك الشرع بهوى النفس - والطامة الكبرى دعوى بعض الأشياخ وانتحاله ما يضر بالعقيدة ، وإضلاله العامة بما ينقله إليهم عن بعض الصوفية ، مدعيا وصوله إليه من طريق الفتح أو الإلهام ، **فقد كثرت النحل والبدع، وسمعنا من أقوالهم ماليس من ديننا ولا يقول به أهل دين آخر، اللهم إلا عند البوذية من المجوس فإن لهم أقوالا تشبه أقوال القائلين بوحدة الوجود، وهم لا يدرون معنى القول بالوحدة.. ولله «العلامة الشيخ جمال الدين» (الأفغاني)، حيث أخبر السيد البكرى، (شيخ مشايخ الطرق الصوفية) أن القول بوحدة الوجود أصله دين قدماء اليونان، ودخل فى العرب عند ترجمتهم كتبهم، فهو دين متداخل فى دين، من غير شعور الآخذين به»**[1] .

وغير هذه «البدعة - الفكرية - الكفرية» - القول بوحدة الوجود - والتى جعلت هؤلاء المبتدعين يتغنون بعبارات من مثل : « وما الكلب والخنزير إلا إلهنا» ! . . و «أنا من أهوى ومن أهوى أنا»[2]! هناك الممارسات البدعية فى الموالد ؛ حتى لقد قال الإفرنج : لنا كرنفال فى السنة ، ولكم فى كل مولد كرنفال» [3] !

---

(١) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٧٨٧ . والعدد الخامس والثلاثون : ص ٨٤١
(٢) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٧٨٨ .
(٣) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٧٨٩ .

يهاجم النديم كل ذلك، قائلا: «فهلا اتخذ الناس طريقة للموالد والمجالس غير هذه الطريقة الشنيعة، وهلا رجع هؤلاء الجهلة عن بدعهم والتزموا طرق أشياخهم الذين يدعون أنهم على آثارهم؟! وما هم إلا في أيدي الشياطين يلعبون بهم كيف يشاءون.. إنهم إن تمادوا في بهتانهم وافترائهم على الله ورسوله، اضطررنا لكتابة رسالة في عقيدتهم وفسادها، وأوردنا أقوال أهل السنة فيها، وتكفيرهم القائلين بوحدة الوجود..»[1]!.

لقد كان انتماء النديم، في الثقافة الدينية: إلى الأشعرية في الأصول - وهي تيار الوسطية الإسلامية، الذي استقطب جمهور الأمة في تصورات الاعتقادات..

وإلى المذهب الشافعي - في فقه الفروع - وهو الذي استقطب جماهير واسعة في مصر، بعد أن استوطنها الشافعي، محمد بن إدريس (١٥٠ - ٢٠٤هـ ٧٦٧ - ٨٢٠م) وأبدع فيها مذهبه الجديد..

وإلى التصوف السني - في طريق تهذيب النفس بالمجاهدات الروحية..

وكان في جميع دوائر هذا الانتماء الثقافي عقلا ناقدا، وفكرا مجددا، كواحد من علماء وأعلام مدرسة التجديد الديني والإحياء الإسلامي - مدرسة الجامعة الإسلامية.. والرابطة الشرقية - التي تبلورت من حول موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني..

(١) المصدر السابق. العدد الرابع والثلاثون. ص ٧٨٦، ٧٨٨.

وفى مقابل هذا «العالم الثقافى» الذى انتمى النديم إلى دوائره ومكوناته ومنطلقاته ومثله ومعاييره .. عالم الإسلام والجامعة الشرقية ، والذى اتخذ فيه موقعه ، كواحد من تيار الإحياء والتجديد .. كان هناك «الآخر» السياسى والحضارى والثقافى الذى كانت حياة النديم ملحمة من ملاحم الصراع معه ، والنقد له ، والكشف لأحابيله التى نصبها للشرق والشرقيين .. كان هناك الغرب الاستعمارى .. وتبشيره الدينى .. وغزوه القيمى والثقافى .. وكان هناك «الأجراء» و «العملاء» ـ من أبناء جلدتنا ـ الذين اتخذوا موقع «التبعية» و «الأدوات» للاستعمار الغربى فى بلادنا ! ..

● فالغرب : كمشروع استعمارى ، قد وظفت دوله الأوروبية النظام الدولى والمعاهدات الدولية لحل تناقضاتها وتوحيد كلمتها فى مواجهة الشرق وفى سبيل استعماره «فبالمعاهدات الدولية .. اجتمعت كلمة ملوك أوروبا على حفظ الوحدة الأوروبية من مس الشرق لها مهما تقلبت المسائل الدولية بين أيديهم ، وعلى توجيه الهمم إلى الشرق فتحا واستعمارا ..»[1].

● والاستعمار الغربى يحاول أن يستر مقاصده ـ فى النهب الاقتصادى .. والاستبداد السياسى .. والاستعلاء العنصرى .. والمسخ الثقافى والقيمى .. والتعصب الدينى ـ بشعارات كاذبة عن «الإصلاح وبث المدنية» .. ذلك «أن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدا شرقيا باسم الاستيلاء ، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية .. وقطع عروق الجهالة والخشونة من العالم وهى علل باطلة ودعاوى

(١) المصدر السابق . العدد الخامس عشر . ص ٣٤٦ .

كاذبة يبعث على اقترائها حب الاستبداد من أمم تدعي الحرية وهم لم يشتموا لها رائحة إلى الآن [1] ! . . فهم يربون إنسانهم على عداوة مثله ، ويسقونه كأس البغضاء يوم فطامه من ثدي أمه ، فيخرج منكرا على مثيله صورته ، مدعيا أن غيره وحشى الطبع همجى السير ، وأن الإنسانية محصورة في حشو جلده ! . . منكرين وحدة الإنسانية ، كرابطة كبرى بين جميع سكان الدنيا . . » [2] !.

ولقد فضحتهم ممارساتهم الاستعمارية في بلادنا . . فبالنهب الاقتصادي ، والاستبداد السياسي « أصبح الأجنبي الحقير في بلادنا أعز من اللورد والسير والبارون في بلاده [3] ! . . وبالقوانين الأجنبية والمحاكم الأجنبية ، التي لا يدري الفلاح شيئا من أصولها » [4] جردوا هذا الفلاح من ممتلكاته ! . .

● والغرب - كدوائر حكم . . وجماهير غفيرة - قد استعان على تبرير اجتياحه لديارنا واحتقاره لثقافتنا ، بتشويه صورة ديننا الإسلامي في وعي أبنائه . . فهم يزعمون « أن جماعة من العرب دعتهم الفاقة إلى اتخاذ قطع الطرق وسيلة لثروتهم ، فاتخذوا لهم رئيسا اسمه محمد بن عبد الله ، وساروا تحت رأيه ، وأخذوا في مهاجمة الأمم ونهب البلاد ، فلما علت كلمتهم وسرى صوتهم في الأقطار ، ادعى قائدهم أنه صاحب شريعة ، وأخذ يضع لهم تعاليم دينية جمعهم عليها . . » [5] !

(١) المصدر السابق . العدد الثاني والعشرون . ص ٥١٤ . والعدد الرابع والثلاثون . ص ٧٩٤ .
(٢) المصدر السابق . العدد الثامن عشر . ص ٤٢١ .
(٣) المصدر السابق . العدد التاسع والثلاثون . ص ٩٤٦ .
(٤) المصدر السابق . العدد الثامن عشر . ص ٤١٠ .
(٥) المصدر السابق . العدد الثامن عشر . ص ٤٢٢ .

● والغزوة الغربية لبلادنا الشرقية ، لاتقف عند احتلال الأرض ونهب الثروة ، وإنما هي - مع ذلك - غزو للقيم والأخلاق ، تستهدف حل عروة الدين الإسلامي ، التي هي أوثق العرى في جامعتنا الشرقية ، وإحلال المدنية البهيمية محل المدنية الشرقية الملتزمة بمثل الدين ومعاييره ! ..

يرى النديم ذلك ، فيكتب تحت عنوان (العَدْوَى الأوروبية للبلاد الشرقية) فيقول : « إن من قابل بين بلاد الشرق قبل استيطان الأوروبيين بها وقبل استيلاء بعض دول أوروبا على بعضها وبين حالتها الراهنة ، من حيث الآداب العامة ، رأى فرقا كبيرا وتباينا عظيما . فإن الواقف على عادات الشرقيين وقواعد أديانهم يعلم أن المسلمين والمسيحيين والإسرائيليين يرون تحريم الزنا من الجهة الشرعية وقبحه من الجهة العقلية ، ويرون صيانة الأعراض من الواجبات .. وكانت الحكومات الشرقية محافظة على الآداب الشرعية والحقوق الشخصية .. فكانت الأعراض مصونة والرجال آمنون على بيوتهم ، غابوا أو حضروا .. وكان الرجال المسلمون أبعد خلق الله عن الخمر ، والإسرائيليون لايشربونها إلا في الأعياد ، والمسيحيون لا يشربون إلا القليل في أوقات مخصوصة ، أما نساء الأقسام الثلاثة ، فإنها ما كانت تذوقها ، ولا كان الرجال يدخلونها عليهن ، لعلمهم أن ما بعد سكر المرأة إلا الافتضاح والميل إلى البغاء . فلما تداخل الأوروبيون في البلاد الشرقية، بالتجارة والتغلب، أفسدوا أخلاق الرجال والنساء بما أدخلوه فيهم من مسمى مدنيتهم التي هي رجوع إلى البهيمية .. وكنا نتألم نحن معاشر المصريين من هذا العيب القبيح ، ظنا منا أن ما أدخله الإفرنج من المصائب لم يصب به غيرنا ، ولكننا علمنا

من أحوال تونس ما هو أقبح وأشنع ، فعلمنا أن ذلك أمر مقصود لكل دولة أوروبية حلت بلادا شرقية ، لحل عروة الدين التى هى أوثق العرى فى الجامعة العصبية والالتئام الوطنى .. لقد اسود وجه المجد بما يسفه أحلام الشرقيين ويلحقهم بالقرود فى التقليد الأعمى»[1] !.

● ومع تغيير القيم والعادات ، وحل عروة الدين ، التى هى أوثق عرى الجامعة العصبية والالتئام الوطنى - استهدفت هذه الغزوة الغربية إحلال القانون الوضعى محل الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها ، وإحلال النزعة الوضعية والفلسفة المادية محل التصورات الإيمانية فى تفسير الكون والحياة والتاريخ .. وإحلال اللغة الأجنبية محل العربية .. « إن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدا شرقيا باسم الاستيلاء ، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية ، وتنادى أول دخولها بأنها لاتتعرض للدين ولا للعوائد ، ثم تأخذ فى تغيير الاثنين شيئا فشيئا.. كما تفعل فرنسا فى الجزائر وتونس ، حيث سنت لهم قانونا فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامى ، بل تنسخ مقابلها من أحكامه ، ونشرته فى البلاد ، واتخذت لتنفيذه قضاة ترضاهم ، ولما لم تجد معارضا أخذت تحول كثيرا من مواده إلى مواد ينكرها الإسلام ، توسيعا لنطاق النسخ الدينى . ولم تلبث أن جاريناها وأخذنا بقانون يشبهه.. ثم حجرت على المدارس تعليم بعض علوم شرعية ، وألزمتهم بتعلم لغتها . والأخذ بالطبيعيات والرياضيات حتى لايشم الأبناء رائحة الدين ، لئلا يعلموا أنهم يغايرونهم دينا فيثورون عليهم.. ولإعدام اللغات الوطنية التى يموت بموتها الدين وحمية الجنس والغيرة الوطنية.. »[2] !.

---

(١) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٧٧٩ - ٧٨٢ ، ٧٨٤ .
(٢) المصدر السابق . العدد الثانى والعشرون . ص ٥١٤ ، ٥١٥ .

ولقد أفاض النديم فى فضح مقاصد الغرب الاستعمارى، كنقيض حضارى وثقافى وقيمى .. بل ولم تمنعه القيود التى فرضتها سلطات الاحتلال على اشتغاله بالسياسة ـ كتدبير يومى للدولة ـ من الدعوة إلى إجلاء جيوش الاحتلال ؛ وإن يكن قد حبذ الطريق السلمى لتحقيق ذلك «فبالرفق يستخرج الإنسان الحية من وكرها»[1] !.

● ومع ذلك، فإن النديم لم يغفل الوجه الآخر للحضارة الغربية .. «فكم للغرب من آثار كانت زينة للشرق، وزيادة فى قوته العاملة والمدبرة..»[2] .. ومن علماء الغرب من أنصف الإسلام «وأثبت انفراده من بين الأديان بتعليم أساليب الحرية وأفانين الفضائل..»[3].

بل وكان النديم داعية إلى معرفة ما لدى الآخر ـ بدلا من الرفض لأنه آت من الآخر ـ ثم عرض هذا الوافد على أصولنا ومعايير اعتقادنا ومنطلقات انتماتنا الثقافى وخصوصيتنا الحضارية، وبعد هذه الرؤية المقارنة والموقف النقدى يكون الرفض أو القبول .. ذلك «أن الذى نراه مغايرا للدين، لم تظهر لنا مغايرته إلا بعدم الاشتغال به، ووصوله إلينا على يد من يخالفنا دينا، فلو اشتغلنا به لأمكننا أن نرده إلى أصولنا بالتأويل أو بالقياس، أو ندافع عن أصولنا ببيان الفاسد فيه. وأما رده دفعة، بلا نظر ولا استدلال، فإنه تعصب

---

(١) المصدر السابق . العدد الثانى والعشرون . ص ٥٢٨ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثانى . ص ١٤١ .

(٣) المصدر السابق . العدد الثامن عشر . ص ٤٢٣ ـ والإشارة للعالم الفرنساوى «سيديو» فى كتابة «التمدن الإسلامى» .

للجهل ، لا للعلم والدين ، فإننا لايمكننا أن نقيم حجة على فساده ونحن لم نشتغل به» [1] . .

ذلك هو منهاج الندم فى رؤية الآخر الحضارى والثقافى : العلم بما لديه ؛ وجعل أصول اعتقادنا ومعايير انتمائنا الثقافى هى القاضى فيما نأخذ وفيما ندع من بضاعة الآخرين . . وهو المنهاج القرآنى . . منهاج ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[2] ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾[3] ؟ . . ﴿ ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾[4] . . بينما كان منهاج الشرك الجاهلى هو التعمية والمصادرة ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾[5] ! . .

---

(١) المصدر السابق - العدد السادس والعشرون - ص ٦٠٨ ، ٦٠٩ .

(٢) البقرة : ١١١ .

(٣) الأنعام : ١٤٨ .

(٤) الأحقاف : ٤ .

(٥) فصلت : ٢٦ .

ولأن أوروبا قد زحفت على بلادنا - فى الغزوة الاستعمارية الحديثة - كما يقول النديم : «.. وقد أحكمت التأليف بين القوتين: الدينية ، والملكية ، فجعلت الأولى سفير وداد والثانية فارس جلاد.. ومقبحة لما عليه الشرقيون من دين وسيرة ومعيشة وانتماء وصناعة وتجارة وزراعة ، منادية بينهم بأن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل ، ولا حياة للأمم إلا بما تأخذه عنه ، ولا مجد لمن لم ينتم إليه ، ولا فضل لمن لم يتعلم فيه ، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه ويتعبد بعبادته ويتقيد بعاداته..»[1] !

لأن هذه هى آفاق مقاصد الغزوة الأوروبية الحديثة ، فلقد جعلت فى آلياتها للفكر والثقافة والتعليم والإعلام مؤسسات وكتائب سبقت وصاحبت غزوات الجيوش وسلطات الاحتلال . .

فالقناصل الفرنسيون فى الشام يتحدثون ، فى مراسلاتهم ، عن مقاصد مدارس إرساليات التبشير ، التى ركزت على الطائفة المارونية ، فيقولون عن هذه المقاصد : «إنها تأمين هيمنة بلدنا على منطقة خصبة ومنتجة.. وجعل البربرية العربية تنحنى لا إراديا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا»[2] ! .

ومن بين خريجى مدارس التبشير هذه ، وفد إلى مصر عدد من المثقفين الكارهين للإسلام وحضارته - لثقافتهم الغربية . . ولمذهبهم الدينى . . ولتناقضاتهم الطائفية مع الدولة العثمانية -

(١) (الأستاذ) العدد الثانى والعشرون . ص ٧٠٥ ، ٧٠٦ .

(٢) من محفوظات إرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس ، السنوات ١٨٤٠ - ١٨٩٨م - انظر كتابنا (هل الإسلام هو الحل) ؟ ص ٢٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥ م .

فاحترفوا التبشير بالنموذج الحضارى الغربى ، وأقاموا المنابر الثقافية والإعلامية التى تدفقت من نوافذها ثقافة الغرب ونظرياته ومثله وقيمه ورؤاه السياسية ، محاولين إقامتها فى بلادنا بديلا للحضارة الإسلامية . . وكان من بين هؤلاء أصحاب مجلة « المقتطف » (١٢٩٣ ـ ١٣٧١ هـ ـ ١٨٧٦ ـ ١٩٥٢ م) وجريدة «المقطم» (١٣٠٦ ـ ١٣٧١ هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢م) وكتابهما ، من مثل يعقوب صروف (١٢٦٨ ـ ١٣٤٥هـ ١٨٥٢ ـ ١٩٢٧م) وفارس نمر (١٢٧٢ـ ١٣٧٠هـ ١٨٥٦ـ١٩٥١م) وشاهين مكاريوس (١٢٦٩ ـ ١٣٢٨هـ ١٨٥٣ ـ ١٩١٠م) وأمين شميل (١٢٤٣ـ ١٣١٥هـ ١٨٢٨ـ ١٨٩٧م) وشبلى شميل (١٢٧٦ـ ١٣٣٥هـ ١٨٦٠ـ ١٩١٧م) إلخ . . إلخ . . وأضرابهم من خريجى مدارس إرساليات التبشير ، الذين احترفوا صناعة التبشير بالنموذج الحضارى الغربى ، وكانوا ـ بعد احتلال الإنجليز لمصر ـ أركان سلطان اللورد كرومر (١٨٤١ ـ ١٩١٧م) والسياسة الاستعمارية فى مواجهة الحركة الوطنية المصرية فى ذلك التاريخ . .

ومع هذا التيار التغريبى كان صراع النديم ! . .

فهو يصفهم بـ«الأجراء . . أضداد مصر والمصريين . . المؤسسين للفتن . . والمترددين على أبواب وكلاء الدول الأجنبية بالأكاذيب والأراجيف . .»[1] «فأصبحوا لا شرقيين ولا غربيين ، واتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق ، وهى تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية ، وما هى إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة . .»[2] . . «وهم الذين نبتت لحوم أجسامهم فى خدمة

(١) (الأستاذ) العدد الرابع والعشرون . ص ٥٦٤ - ٥٦٧ .
(٢) المصدر السابق . العدد الثانى والعشرون . ص ٥١٠ .

الأجنبي، فانفعلت لها أرواحهم، فكلما حولتها عن وجهتها الغربية دارت إليها، فهي قبلة مصلاها التي وقفت في محرابها وقوف القانت الواعظ !.. فإذا قالت جريدة وطنية: ينبغي أن نحافظ على عوائدنا الجنسية والدينية، ونأخذ من محسنات أوروبا مالا يضر بمعتقد ولا يذهب بمال ولا يهتك عرضا، قامت جريدتهم لتقول: إن هذه دعوة إلى الهمجية وتقهقر المدنية.. وإذا قال كاتب وطني: إن صلاحنا في استقلالنا بممالكنا وأعمالنا، قالوا: إننا غير مؤهلين لذلك، وإن حاجتنا إلى الأجنبي كحاجة الجسم للروح.. وإذا قال خطيب: إن سعينا خلف تعلّم الصناعة مما يزيد قوتنا ويعظّم ثروتنا، عارضوه قائلين: «لا معادن عندنا، ولا معامل في بلادنا، ولا صناع فينا، ولا قدرة لنا، فأولى بنا أن نبقى تحت عوامل الزمن قانعين بمصنوع الغير..» !.

والنديم يلتمس العذر للأجنبي المستعمر، ولا يرى عذرا لهؤلاء الأجراء العملاء.. «فلا يُلام أجنبي نزح عن بلاده ليخدمها في الشرق.. ولكن العجب من شرقي يخدم غربيا يسلب حقوق إخوانه، وإضاعة شرف أوطانه، والحط على ملوكه وأمرائه.. فالأجنبي المحض خير للشرقيين من هذا المحتال.. وشر الرجال من ينفق حياته في إفساد أهل بلاده، وإغراء الغير بهم، طمعا في ذهب يموت ويتركه: فيفنى ويبقى ذكره القبيح خالدا في بطون أوراقه!...»[1].. «ولا يلام الغربي على تداخله في شئون الشرق وأهله، فإن ذلك من أطماع الملوك في كل زمان، وإنما نلوم الشرقيين على تعاميهم عن مصلحة بلادهم وانصرافهم عنها بالاشتغال بمصالح الغربيين..»[2].. وليس من

---

(١) المصدر السابق . العدد السابع عشر . ص ٣٨٨ - ٣٩٠ .
(٢) المصدر السابق . العدد الثامن عشر - ص ٤١١ .

التهذيب أن نذم أوروبا ونقبح أعمال أهلها وعوائدهم، فإن لكل أمة خصائص ألفتها وعادات لزمتها، وإنما نذم الذين أرادوا تقليد أوروبا..»[1] .. «إذ لا يلزم من استحسان الغير لشيء نفعه لآخر..»[2] ..

«لقد استمالت أوروبا هؤلاء الأجراء، فانتموا إليها، فهم أجانب منا وإن تكلموا لغتنا وسكنوا وطننا، بل وإن دانوا بديننا..»[3] .. ولقد «اعتمدت إنكلترة على جرائد هؤلاء الأجراء.. تحرك بها نار النفرة بين المصريين..»[4] . والنديم لم يقف في فضح تيار التغريب هذا، بما كتب من مقالات. تدر أن يخلو من إحداها عدد من أعداد (الأستاذ) فنظم في فضحهم الشعر أيضا! .. وخاطب المصريين والشرقيين فقال:

وحاشوا أناسا أشربوا حب غيركم	وهم منكمُ لكن يسرّهمُ الشر
مثالهمُ بعض الألى أنشأوا لكم	جرائد يزهو في صحائفها السطر
ومن بات مسرورا بخدمة غيركم	ومثْرِله من فضل أعدائكم وَفْرُ
ينادونكم للغير باسم صلاحكم	وسم الأفاعي في صناعتهم حِبْرُ»[5]

* * *

(١) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص ٤١٧، ٤١٨.
(٢) المصدر السابق. العدد الأول. ص ١٥.
(٣) المصدر السابق. العدد الثامن عشر. ص ٤٢٠.
(٤) المصدر السابق. العدد الثامن والثلاثون. ص ٩١٤.
(٥) المصدر السابق. العدد الرابع والعشرون. ص ٥٦٤.

والنديم لا يدع مجالا للشك فى أن سهامه الوطنية والحضارية والدينية إنما هى موجهة إلى أجراء الأجنبى وعملاء الحضارة الغربية، من تيار «المقتطف» و«المقطم» على وجه التحديد..

فهو يصف كتاب «المقتطف»: الذين جعلوا مجلتهم نافذة للنظريات الوضعية والمادية الغربية، بأنهم: «أعداء الله وأنبيائه» و«الأجراء الذين أنشئوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لم يدينوا بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الحق. وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هي إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان..»[1]!

وهم «أعداء أنفسهم، دفعتهم يد الطرد إلى النزوح عن وطنهم إلى مصر المحروسة، فالتجئوا إلى بعض أمرائها فأكرمهم ظنا أنهم من أرباب الأقلام أو ذوى الأفهام، بما يراه فى جريدتهم التى ما فيها إلا تراجم عن جرائد أوروبا العلمية.. فقربهم أمراء مصر اعتمادا على أنهم شرقيون عثمانيون، لا يخدمون إلا دولتهم، ولا يغشون إخوانهم، فما لبثوا أن كفروا بالنعمة، وأنكروا المعروف، وانحازوا إلى الغير.. واغتروا بعناوينهم، وظنوا أن العلم محصور فى تعلم الإنسان لغة غير لغته، يترجم بها كتب قومها، ويضرب بها على من لم يعرفوها، موهما أن المسطر تصنيفه والمجموع تأليفه، وهذا هو الجهل المركب الذى صيرهم أعداء لأنفسهم وهم لا يشعرون..»[2]!

---

(١) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص ٩٢٣، ٩٢٤.

(٢) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون. ص ٩٢٧ - ٩٢٩.

وعندما تجيب « المقتطف » عن سؤال قارئ مسيحي - إسكندر أفندى صعب - حول السد الذى بناه - الإسكندر - ذو القرنين - والذى وردت الإشارة إليه فى القرآن الكريم . . وتقول فى جوابها : «إن ذلك كله من الأقوال التي لا دليل على صحتها» ! . . يتصدى النديم لهذا التشكيك فى القصص القرآنى . . ويقول : « إن قصة السد ويأجوج ومأجوج ذكرها القرآن العزيز ، وهو شائع ذائع معلوم لمحررى المقتطف . . والقرآن لم يتعرض لتعيين جهته ومساحته واسم واضعه . . فلا يقال - ما قالت المقتطف - من أن السائحين وصلوا الجهة التى أخبر القرآن عن وجود السد بها ولم يجدوا شيئا .. وأدب الكتابة، وحفظ علائق المحبة يقضي بالبعد عن الطعن الديني في جريدة تنتشر بين المسلمين وفى بلادهم.. فالمسلمون لايرضون أن يروا الطعن فى كتابهم بلسانهم منشورا بينهم.. »[1] !

أما أصحاب «المقطم» . . فهم - برأى النديم - «الأجراء.. الخونة.. عملاء الأجانب.. الذين خانوا وطنهم وسلطانهم وأهلهم وخلانهم.. وذلك عندما داروا حول أبواب الانكليز ، يوهمونهم أنهم عبيدهم الخاضعون، وخدمهم المخلصون، وجواسيسهم الناقلون، وتراجمتهم المتبرعون، فوسوسوا لهم وسوسة إفساد وإغراء، وخوفوهم من المصريين، وحذروهم من الركون إليهم والاعتماد عليهم، فأبعدوهم عن الخدمة، وحشدوا مكانهم الغرباء، حتى كأن ثمرة مصر ما حرمت إلا على أبنائها. ثم نشروا تلك الجريدة الخرقاء، يوهمونهم أنها مقبولة عند المصريين، ولجهل الإنكليز بالعربية صدقوا هؤلاء الأبالسة، وألزم أتباعهم كثيرا من الناس بالاشتراك فيها ليعمموا نشرها فى البلاد..

---

(١) المصدر السابق . العدد الحادي والعشرون . ص ٤٩٧ - ٥٠ .

وهى عدوة المصريين» ! .. «فهى جريدة لشق عصا الاجتماع الشرقى...» [1] ! . .

بل إن النديم يصنف « المقطم » ضمن «الجرائد الإنكليزية التى تصدر فى مصر» [2] ! . . وأصحابها ـ عنده ـ ممن « تعلم فى مدارس الغير ، على نفقة أهل الخير ، فخرج مصطنعا ، لا يعرف له وطنا ولا شرفا ولا قبيلة[3] . . يغمسون أقلامهم فى نعمة الشرقيين ليكتبوا بها معايب لمن أغنوهم ، ويجلبوا بها مصائب لمن آووهم ، فما يضرك إلا رجل يدعى أنه أخوك ، يناديك بلهجتك ليخرجك من بيتك ويسلمك إلى النخاسين الذين طافوا الأرض لاسترقاق الأحرار ! . . لقد استخدمهم الغربيون بأجرة لا تزيد على ثمن نعل ! . . وبرغيف يحصله الزبال وخرقة يملكها الشحاذ ! . . وهم يستدعون أوروبا بدعوى المحافظة على الأمن والخوف من الحركات الدينية [4] !! . .

ولقد احتدمت المعركة بين « المقطم » وبين « الأستاذ » . . والنديم يكتب : « لقد خصتنا جريدة المقطم بسب شخصى وقذف ذاتى ، افتراء ، فقابلناها بحلم الأدباء وصفح الكرماء وصمت الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » [5] . .

---

(١) المصدر السابق . العدد التاسع والثلاثون . ص ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٤٥ ، ٩٤٧ ، ٩٣٢ . وانظر كذلك صفحات ٩٢٤ ـ ٩٣٣ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثانى والأربعون . ص ١٠٢٩ .

(٣) المصدر السابق . العدد التاسع والثلاثون . ص ٩٣٤ .

(٤) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٧٩٨ ، ٧٩٩ . والعدد الثانى والعشرون . ص ٥٣٢ .

(٥) المصدر السابق . العدد الأربعون . ص ٩٧٥ ، ٩٧٦ .

ولما أعيتهم الحيلة ، سعوا إلى سلطات الاحتلال طالبين نفى النديم من مصر ، كى لا يصنع ما سبق وصنع إبان الثورة العرابية مرة أخرى ! . . بل وكان « المقطم » أول من أشار إلى القرار الاستعمارى بنفى النديم . . « لقد بارت تجارة الأجراء ، فلم يجدوا طريقا تنفق به سلعتهم إلا السعاية . . **ولقد أرجفوا بأن محرر (الأستاذ) سيبعد عن مصر . .** »[1] . . وبعد شهر واحد من هذا الإرجاف بنفى النديم ، كان الرجل يودع قراءه ، بمقال جعل عنوانه « تحية وسلام » ، طوى به صفحة أول منبر وطنى فى الصحافة المصرية بعد هزيمة العرابيين . وفى ختام صفحات أعداد (الأستاذ) قال : « **وما خُلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب ، والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظم والجلالة ، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرا فى أعين الواقفين عند الظواهر** . وعلى هذا فإنى أعلن لإخوانى قائلا :

أودعكم والله يعلم أننى ... أحب لقاكم والخلود إليكمُ
وما عن قِلًى كان الرحيل وإنما ... دواع تبدت ، فالسلام عليكمُ![2] »

* * *

لكن (الأستاذ) ، التى مثلت فى ذلك التاريخ : ديوان الوطنية المصرية والجامعة الشرقية والحضارة الإسلامية ، كانت الأستاذ الذى تعلم على يديه مصطفى كامل (١٢٩١ - ١٣٣٦هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨م) فكان « الحزب الوطنى » ، حزب الوطنية المصرية والجامعة الإسلامية . . ذلك الذى خرجت من عباءته القوى التى

(١) المصدر السابق . العدد السابع والثلاثون . ص ٨٨٩ .
(٢) المصدر السابق . العدد الثانى والأربعون . ص ١٠٣٢ .

واصلت الجهاد الوطنى ، والرباط على ثغور الخصوصية الحضارية . . فتوالت ، ولاتزال تتوالى صفحات التدافع الحضارى بين فكر عبد الله النديم - أبرز المعبرين عن أحشاء مصر ، وهوية أبناء الشرق - وبين الذين « استمالتهم أوروبا ، فانتموا إليها ، فهم أجانب منا وإن تكلموا لغتنا وسكنوا وطننا ، بل وإن دانوا بديننا» . . كما قال النديم . . عليه رحمة الله .

الفهـــرس

إلى القارئ العزيز ..

فى هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربى» هو تنوير علمانى ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامى للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التى يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشرى .
- د . حسن الشافعى
- د . محمد سليم العوا .
- ا . فهمى هويدى
- د . جمال الدين عطية .
- د . سيد دسوقى
- د . كمال الدين إمام .

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر

